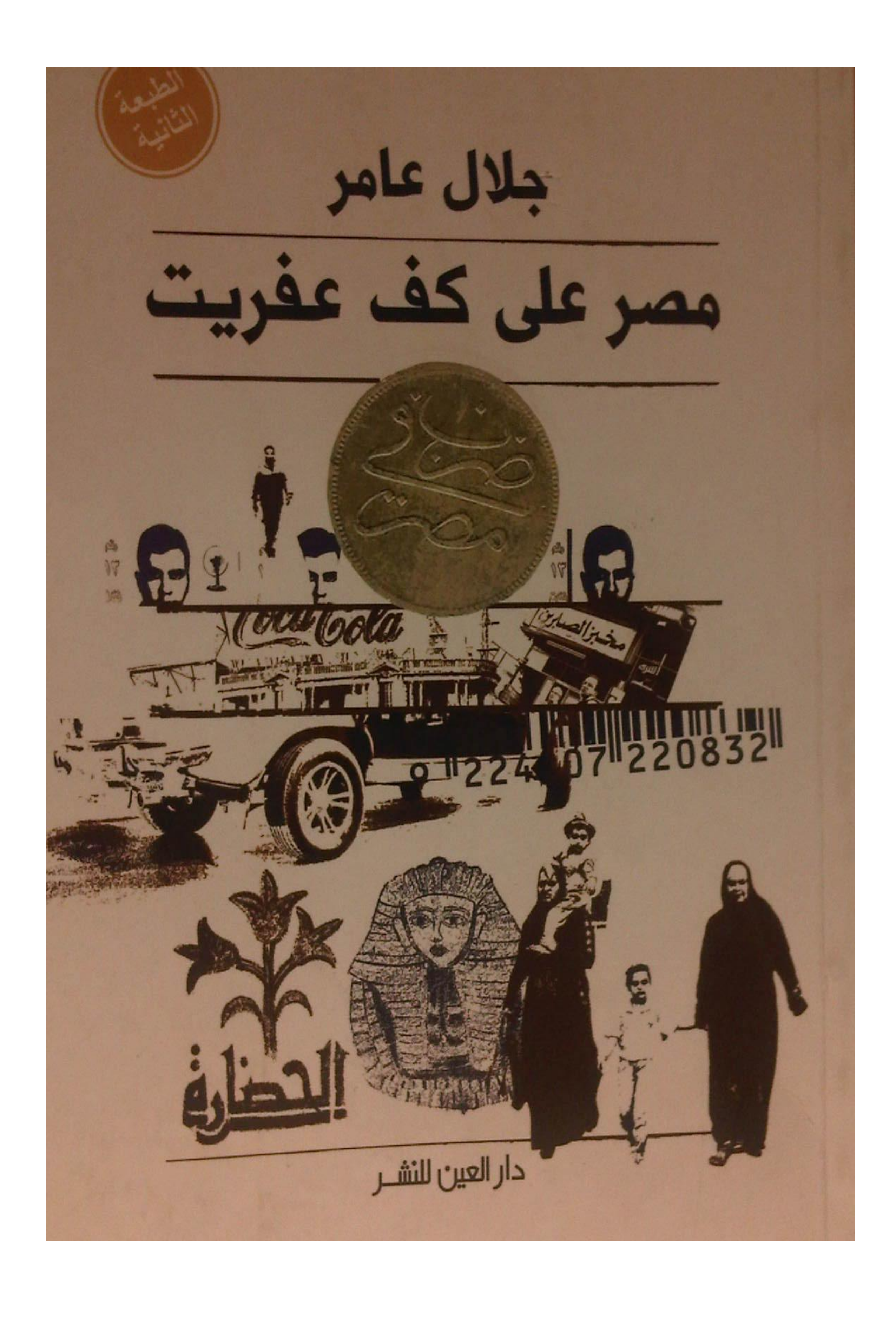

الطبعة الثانية
جلال عامر
مصر على كف عفريت
دار العين للنشر

جلال عامر

مصـــر علـــى كـــف عفـــريت

دار العين للنشر

الإهداء

إلى رفيقة الطريق

المقدمة

هذا الكتاب عبارة عن مجموعة مقالات نشرتها في الصحف المصرية في محاولة لبحث حالة وطن كان يملك غطاء ذهباً؛ فأصبح بدون غطاء بلاعة، لماذا؟ و كيف؟ و مع ذلك مازلنا نحبه.

كلنا لها

على فكرة أنا حضرت "مصر" الله يرحمها و أوْعى لها كويس و عاشرتها فترة قبل ما تموت، و لما طلعوا بيها فاكر إن الريس كان في مقدمة المشيِّعين، و في الجنازة بعض المغرضين قالوا: يقتل القتيل و يمشي في جنازته؛ يومها أبويا "عويس" زغدني في كتفي و قال لي اسكت يا غبي.. قلت له مش أنا يا آبا اللي قولت كدا، قال لي: ما أنا عارف يا غبي، أنا بضربك علشان الأمن اللي حوالينا يعرف إن أنا مش موافق على الكلام ده.

و فاكر "النعش" كان بيجري تقريباً كان عايز يخلص من اللي كان فيه، و ناس قالت و النبي ماتت و ارتاحت، دي مشافتش يوم تحكي عنه، فأبويا عويس قال لهم صلوا على حضرة النبي و اسكتوا، أحسن النعش طالع مطْلع، فرد واحد و قال لأ يا حاج دة مش مطلع اسم الله عليك دي المرحلة التاريخية اللي قبل المدافن، و واحد سأل الدكتور (همه شرَّحوا الجثة؟) فالدكتور قال له (أيوة شرحوها و هي حية) و فاكر أم حنفي (كان عندها سبع عيال محدش فيهم اسمه حنفي) كانت بتعيَّط و تصوَّت و تقول: ماتت بحسرتها لما باعوا حاجتها، و تصوت، فأبويا عويس مسك إيديها و بص في صوابعها على الحبر الفسفوري و قال لها: "انتي مش صوَّتي قبل كدا، خلاص متصوتيش تاني" و الجماعة في أول الصف كانوا بيقولوا لبعضهم: (و بعدين بقى دي سابع بلد تموت في إيدينا) فواحد سمعهم و قال لهم: ربنا يعوض عليكم تقريباً اتسرب لها مية من الملَّاحة، ما هو من ساعة ما مات "الدقشوم" و "الدفاس" ماحدش بيعرف يفيِّش الهوامش و منها هامش الحرية.. و صرخ واحد بصوت عالٍ (دنيا.. دنيا) فأبويا عويس قال له: (ما تتعبش نفسك مش هتسمعك) و لما الناس شافت أبويا عويس بيفهم كل حاجة سألوه (صحيح الكفن مالوش جيوب) فأبويا عويس قال لهم: دي كانت موضة قديمة و بطلت خلاص الكفن دلوقتي بيعملوا له أربعة جيوب كبار من قدام أو ستة، و فيه ناس مقتدرة تعمله إتناشر حسب إمكانيات الميت. و بعد ما مشينا مسافة طويلة في الشمس وصلنا عند المدافن و الجماعة اللي في أول الصف قالوا للمشيعين: (خلاص ارجعوا و متشكرين قوي يا جماعة و سعيكم مشكور) قلنا لهم أبداً لازم نكمل السعي و نحضر الدفنة أحسن ترجع تاني.. فالجماعة بتوع أول صف قالوا لنا: (مفيش دفنة و لا حاجة، إحنا هنبيع الجثة لطلبة كلية الطب).

***

البقاء لله

توفيت إلى رحمة الله تعالى الدولة المدنية الشهيرة بالجمهورية، المولودة في عام ١٩٥٣. و المذكورة عمدة بلدان الشرق الأوسط و قريبة و نسيبة العالم العربي، و خالة و عمة العالم الإسلامي، و شقيقة المرحومة الجامعة العربية، و المرحومة منظمة عدم الإنحياز.. و سوف تشيع الجنازة من مقر الحزب الوطني بكورنيش النيل، و قد توفيت الفقيدة إثر حادث أليم عقب إنشاء اللجنة العليا للترشيح. و إنا لله و إنا إليه راجعون. فجأة تم إلغاء فكرة الاستخلاف المباشر كما حدث من أبي بكر لعمر، و إعمال نظام الهيئة العليا للترشيح كما فعل عمر الذي كان أكثر تقدمية و استنارة، لأنه اشترط ألا يتم اختيار واحد من أعضاء هذه الهيئة و حدد لهم ستة أسماء لتختار منهم و رفض أن يكون ابنه منهم. و لمن لا يقرأ التاريخ؛ فإن لجنة ابن مسعود اختارت "عثمان" لتبدأ أحداث الفتنة الكبرى، بعد أن قتله المصريون عندما جاءوا. و الحل؛ أن نفعل كما فعل الأوائل فلا نشارك في أحداث الفتنة الكبرى بأن نهاجر إلى "الكوفة"، لأن الكوفة الآن محتلة، أو نغلق علينا دارنا، لكن الشقة حر و كتمة. إذن ليس أمامنا بعد أن نعزّي سوى أن نهنئ الورثة الشرعيين، و أن نتعلم السباحة حتى نعوم من هنا لإيطاليا.

***

مغامرات عبد السميع في الشورى

عبد السميع أفندي رجل محترم على المعاش، أراد المشاركة في انتخابات مجلس الشورى فتوجه إلى لجنته الإنتخابية في الساعة الثامنة من صباح الاثنين؛ فأخبروه أن لجنته انتقلت إلى مدرسة البنات، و هناك قابل رئيس اللجنة و قدم له نفسه على أنه عبد السميع أفندي؛ فأخبره رئيس اللجنة أنه يكذب لأنه يعرف عبد السميع أفندي من أيام المدرسة، و قال له أن عبد السميع أفندي قصيع و أقرع و له كرش و يلبس نظارة. عاد عبد السميع أفندي إلى منزله حيث حلق شعر رأسه و ارتدى نظارة و أكمل الهيئة المطلوبة، و عاد إلى مدرسة البنات فأخبروه أن اللجنة أخدها الونش؛ فتوجه عبد السميع أفندي إلى المرورو وجد في الساحة أمام إدارة المرور العديد من اللجان منزوعة النمر و يبحث عنها أصحابها، فتوجه عبد السميع أفندي إلى رئيس اللجنة الإنتخابية العليا، المستقلة ذات السيادة التي تشرف على الانتخابات؛ فرحبت به اللجنة و التقطت له عدة صور للذكرى الخالدة، ثم حددوا له لجنة جديدة في محافظة مجاورة. أراد عبد السميع أفندي أن يسافر بالقطار، لكن رئيس اللجنة المستقلة نصحه أن يسافر ماشياً على رجليه حتى يزيد ثوابه، و طلب منه أن يعفّر قدميه بالحبر الفسفوري في سبيل الوطن.

قبيل الغروب كان عبد السميع أفندي أمام اللجنة؛ حيث فتشه الحراس على الباب و رفضوا دخوله، حاول أن يدخل من نافذة الدور الأرضي فضربه العسكري بالسونكي؛ فاتجه إلى مواسير البنية الأساسية التي تكلفت مليارات، و عرف فائدة البنية الأساسية، و بدأ في الصعود و دخل من نافذة الدور الثالث فوجد رجلين يسوّدان البطاقات و يضعونها في ثقب الصندوق فأراد أن يساعدهما فرفضا بحجة أنه ليس من اللجنة. في هذه اللحظة دخل رئيس اللجنة الفرعية، و هو تبّاع في شركة النقل؛ فحمل الصندوق على كتفه إلى لجنة الفرز، أما عبد السميع فقد عاد خائباً، لكنه اشترى زجاجة حبر فسفوري غمس فيها أصابعه حفاظاً على منظره أمام أولاده.

***

الخبير عبد الخبير

امتلأت بلدنا بالخبراء من كل نوع و لون، و كلما زاد عددهم تدهورت أحوالنا، و لأن الخبير بالخبير يذكر، فأنا دائماً أتذكر بالخير ذلك الخبير العظيم الذي ظهر على شاشة التليفزيون في حرب العراق و نصح قوات التحالف بدخول بغداد من ناحية بتاع العصير. و أنا لا يوجد بيني و بين الخبراء عمار، و ربما السبب هو خالي "عبد الخبير" الذي كان يفتي دون أن يعلم، و يجيب دون أن يُسأل، و يفسر لنا التطور البيولوجي و الجيولوجي و المورفولوجي، ثم مَن الله عليه بدبلوم التجارة بعد ذلك بسبع سنوات، و رغم وفاة خالي "عبد الخبير" متأثراً بأغنية بحبك يا حمار، معتقداً أنه المعنّي بها؛ فإن الكثير من أبنائه و أحفاده الآن يغطون شاشة التليفزيون لمنع الأتربة، صحيح أنهم ليسوا بقوة خالي "عبد الخبير" لكن الموجود يسد، فمن الممكن للتليفزيون أن يستدعي محامياً لشرح مرض البهاق على أساس أنه الوحيد الذي وجدته المذيعة صاحي، أو طبيباً لشرح القواعد الجنائية على أساس أنه أقرب للتليفزيون، و هو ما جعل مهندساً زراعياً يتسيد الوعاظ. الأسبوع الماضي أطلقت إسرائيل القمر الصناعي (أفق ٧) فعلق الخبير التليفزيوني قائلاً و إيه يعني؟ في الفضاء أربعة آلاف قمر صناعي و قلل من شأنه و كأنه حتة حديدة سقطت من فوق السطوح. و الحقيقة التي ذكرها لنا خالي "عبد الخبير" تختلف عما ذكره حفيده التليفزيوني، فالأربعة آلاف قمر للإرسال و البث و رصد المناخ و قياسات أخرى، لكن هذا القمر يفوقهم تكنولوجياً و يستخدم للأغرض العسكرية و يستطيع رصد و تصوير مسطرة يحملها تلميذ، و لا توجد دولة أخرى بها هذا النوع من التكنولوجيا المتطورة إلا أمريكا. و خبير آخر يعمل خبيراً في محمد نجيب، و هي أول مرة أعرف فيها أن شخصاً يعمل خبيراً في شخص آخر، راح يؤكد أن مكتب محمد نجيب لم يكن له باب جانبي. ساعة كاملة و الرجل يتحدث عن عدم وجود باب، و المذيع وعد بجزء ثان لاستكمال حديث الباب و أنا –بدون هزار– عندي باب زيادة فوق السطوح مستعد أن أركبه بنفسي في مكتب محمد نجيب و بمفصلات جديدة، حتى ننسى هذا الموضوع و نتفرغ لموضوع آخر أهم. و هو شباك محمد نجيب.

***

الطيب و الشرس و القبيح

أعتقد أن "موريس لبلان" مؤلف و مهندس الحياة الإقتصادية في مصر! و "موريس لبلان" –لمن لايعرفه– هو مبتكر شخصية "آرسين لوبين" و الذي أطلق عليه وصف "اللص الظريف"؛ و هي تركيبة بلاغية تشبه "الحزب الإسلامي الديمقراطي"؛ إذ كيف يكون اللص ظريفاً و الحزب إسلامياً ديمقراطياً، و الحقيقة أن عندنا لصوصاً لكن ظرفاء، لكن أشرف السعد أكد هذا الأسبوع أن اللصوص تبعنا ليسوا هم فقط الظرفاء بل المسئولون أيضاً.

يقول أن أحد المسئولين استدعاه قبل هروبه و طلب منه بيع شركة الثلاجات زانوسي التي يملكها بثلث الثمن، و لما رفض أرسله إلى سجن خاص مكث فيه ثلاثة أيام عاد بعدها ليرجو المسئول و يلح عليه أن يبيع الشركة بربع أو خمس الثمن، و هي حيلة لم تخطر على بال "موريس لبلان" و لا "آرسين لوبين"، أن يعد سجناً خاصاً يرسل إيه أصحاب الصفقات الرافضين، يعودون منه بعد ثلالثة أيام فقط موافقين من هول ما شاهدوه هناك. يقول أشرف السعد: إن مسئولاً آخر مهاوداً و طيباً قدر تكلفة السرير الواحد في المستشفى الذي بناه بما يقارب ربع مليون جنيه، و هو كما ترى ليس سرير الملك توت عنخ آمون، المهم أننا شهدنا مسئولاً شرساً و مسئولاً طيباً، و بقى أن نشاهد مع السعد المسئول القبيح ليكتمل فيلم "الطيب و الشرس و القبيح" و قد حدث، فأحد المسئولين انهال على السعد بالشتائم التي طالته هو و السيدة والدته، و انفجر فيه غضباً و إهانة و هو واقف أمام مكتبه ذليل، و عندما همس السعد له بموفقته على صفقة لصالح المسئول، أجلسه و طلب له قهوة و تغيرت لغة الكلام، و خاطبت عيناي في لغة الهوى عينيك.

على السادة المعجبين بـــ "موريس لبلان" أن يعلموا أن الحياة الأدبية و الإقتصادية تتطور، و أن قصص "آرسين لوبين" لم تعد تصلح إلا للأطفال بعد أفلام الرعب التي نشاهدها الآن. فيا "موريس لبلان"، الكاتب الفرنسي العظيم، و يا "آرسين لوبين"، اللص الباريسي الخطير، بجواركم في باريس من هو أعظم و تستطيعون التعلم منه؛ رامي لكح.

***

المسيح يُصلب من جديد

للروائي اليوناني العالمي "كازنتزاكيس"، الحاصل على نوبل، رواية شهيرة بعنوان "المسيح يُصلب من جديد"، و أحداث الرواية متجددة مع كل بريء يقتل بينما يكافأ القاتل. و ما حدث في مناقشة تقرير العبارة في مجلس الشعب يؤكد أن "المصري يغرق من جديد" و أن الدكتور فتحي سرور يستحق نوبل عن هذه الرواية، بل إن "مانولي"، بطل رواية "كازنتزاكيس" هو بريء واحد مات؛ لذلك يستحق الدكتور و معه نواب الحزب الوطني ١٠٣٤ نوبل، بعدد الأبرياء الذين غرقوا، ثم إن الحبكة الدرامية في رواية "المصري يغرق من جديد" يعجز "كازنتزاكيس" عنها. فالشرير في الرواية اليونانية لم يجد أحداً يوصِّله إلى مطار أو يحميه أو يغطيه بالحصانة ليمنع عنه يد العدالة و عين الحسود. الحزب الوطني الذي عجز عن توفير السمك للمواطنين، نجح في توفير المواطنين للسمك، و تنافس نوابه في الدفاع عن المجرم الحقيقي، و منعهم الخجل أن يطالبوا بمنحه وسام "بطل البحر الأحمر". و إذا كان ممدوح إسماعيل قد حوَّل البحر الأحمر إلى بحيرة خاصة به، فإن البعض حوَّل البرلمان إلى محمية طبيعية للفساد، و لم يعد يعنيه الشعب. بل الشُعب المرجانية و الحيتان.

***

ثروت الناشف

في بداية السبعينيات عيَّنوني مع بعض الزملاء كحرس شرف في قصر عابدين، للرئيس السادات و الأسد و القذافي، و بعد انتهاء مراسم الاستقبال قادنا رئيس حرس الشرف إلى بوابة القصر، و هناك قال لنا "مارش" ففهمنا ضمناً أن ننصرف إلى بيوتنا. و لما كان زميلنا "ثروت الناشف" جامداً لا يعرف المرونة متمسكاً بالحرفية؛ فإنه رفض الإنصراف و ظل ماشياً في خطوة الأوزة في الشوارع و نحن بجانبه نحاول إقناعه بالانصراف، و يصر هو أن السيد اللواء لم يقل "انصراف" فتركناه و توجهنا إلى منازلنا، و بعد هذا اليوم انقطعت أخباره عنا، يقول البعض أنه ظل ماشياً في خطوة الأوزة حتى وصل إلى الشلالات و الجنادل في جنوب الوادي، و يزعم آخرون أنه اتجه غرباً إلى السلوم و اخترق الحدود الليبية، بينما يؤكد أحد الزملاء أن عربة دهسته أمام قصر عابدين فور أن تركناه. المهم أن ثروت الناشف اختفى لكنه عاود الظهور الآن في شكل أحزاب جامدة لا تعرف التغيير و تيارات لا تؤمن بالتطور، و قطاعات عديدة تُعادي العلم و منطق التاريخ و تحتقر العقل و التفكير. و إذا كان "ثروت الناشف" قد دهسته عربة الطريق، فإن كل هؤلاء سوف تدهسهم عربة التاريخ.

***

الأستاذ فاروق الأول

كان الملك فاروق يسمح لنا نحن أهل حي بحري في الإسكندرية بالدخول إلى الحديقة و شاطئ قصر رأس التين. بل كان أحياناً، خاصة في ليالي رمضان، يتعطَّف و يرسل إلينا في الحديقة طعاماً و حلوى و فرقة موسيقية لتعزف لنا. و عندما انتقل الإشراف على الحديقة من الأستاذ فاروق الأول إلى صاحب الجلالة المعظم رئيس الحي، أصدر جلالته "ديكارتو سلطاني" بمنع الناس من الدخول. و كانت إسرائيل تحتل شاطئ القنال، و كنت أنا و زملائي الضباط نتزل و نستحم فيه، و عندما احتلت محافظة الإسكندرية الشاطئ أصبح من المستحيل أن نفعل ذلك؛ فمباني و نوادي المحافظة أقوى من خط بارليف.

منذ عشر سنوات و أنا جاهز و أرتدي المايوه و أبحث عن ثغرة في البحر لأقفز فيها، فلا أجد. و الحقيقة أن المحافظة تحاول أن تعوضنا من فترة إلى أخرى بنقل البحر إلى شوارعنا عن طريق طفح المجاري، لكن الناس ترفض فتصعد المجاري في إصرار وراءنا في منازلنا عارضة خدماتها، و تصر الناس الطماعة على الرفض. أحد هؤلاء الرافضين، الذين لايعجبهم العجب، قال إنه صابر لأن عنده أملاً في مجئ "تسونامي" ينقل إلى متزله أمواج البحر.

***

كيلو هريسة

الأحكام العامة خاطئة؛ لذلك فإن رجال الأعمال ليسوا كلهم لصوصاً بدليل أن بعضهم "شيوخ منصر"، و بعضهم شيوخ تليفزيون؛ و علينا أن نفرق بين العصامي و الحرامي. يقول أحدهم إن أمه ماتت و تركت له نص كيلو هريسة و استطاع أن يكبِّره و ينمِّيه حتى تحول إلى مصنع يعمل فيه آلاف العمال، و أن خط الإنتاج عنده يفوق الآن "خُط الصعيد". و الغريب أن أمثال هؤلاء تحمِّلهم الحكومة ثلاثة أرباع خطة التنمية على أساس أن الربع الباقي لأعمال السنة و درجات الشفوي.

و هذه الرأسمالية كدست الأموال و لم تكدس المعرفة، يقول أحدهم إن والده عندما مات توفى، و هي إضافة جديدة لم نكن نعرفها، أن الإنسان عمدما يموت يتوفى.. في بلدنا جهاز مركزي للشركات و أمن مركزي للمظاهرات، لكن تم إلغاء التخطيط المركزي من أجل هؤلاء. حقاً لكل زمان دولة و رجال أعمال. فقد اختفى نموذج "طلعت حرب" و ظهر نموذج "طِلعت رُرحنا".

***

فيلم خيالي

كان لي قريب من طراز غريب، استمرت خطوبته سبع سنوات و استمر زواجه ثلاثة أشهر. كنا نشاهد فيلماً خيالياً تطير فيه رأس البطلة لتستقر فوق رقبة البطل ثم تطير رأس البطلة لتستقر فوق رقبة البطل، ثم يطيران معاً في الفضاء و يبعدان القمر من مساره و الشمس من مكانها و هما يشربان كازوزة، فيترك قريبي كل هذه الأمور الغريبة، و يعترض على الكازوزة؛ إذ كيف –من وجهة نظره– يشربان كازوزة في عز البرد؟ ترك الرقاب و الطيران و الشمس و القمر و اعترض فقط على الكازوزة. قريبي هذا وصلته أنباء غير سارة أثناء سفره عن زوجته، و اكتشف أنها تعمل في كازينو بدون علمه و تصادق من لا يرضى عنهم و تدخل المنزل بعد نصف الليل، فلم يعترض إلى أن جاء يوم رآها فيه تشرب كازوزة في عز البرد، فظن بها الظنون و طلقها.

قريبي هذا كان يترك ما هو مهم و خطير و يعترض فقط على الكازوزة حتى ضاع هو شخصياً في الكازوزة، و لم يتبق من ذكراه إلا تلاميذه الذين يتركون كل هذه الانتهاكات السياسية و الدستورية، و يعارضون في أشياء صغيرة و باردة مثل الكازوزة.

***

كامتشو

نشر صديقي أحد عشر إعلاناً في الصحف لبيع كلب نادر اسمه "كامتشو" و أجرى مئات الاتصالات التليفزيونية، و علق إعلانات على الحوائط و توجه إلى مراكز متخصصة، و لم يتقدم أحد حتى الآن لشراء الكلب. و هو ما يؤكد عبقرية الحكومة؛ التي تعثر على المشتري قبل أن تعلن عن البيع؛ بل دون أن تعلن؛ إذ يظهر اسم المشتري قبل اسم المصنع أو البنك أو معه في نفس الوقت. كيف وصلت الحكومة إليه دون إعلان و كيف عرف هو بنية الحكومة في البيع، لغز لا يعرف أحد إجابة له! هل هناك مغارة أو محمية طبيعية تتحفظ فيها الحكومة على هؤلاء المشترين؟ أم أن الأمر يخضع لقواعد اللغة العربية في النصب؟

إن مشكلة الحكومة لن تنتهي إلا بانضمامها إلى عالم الشفافية، و مشكلة "كامتشو" لن تنتهي إلا بانضمامه إلى وحدات القطاع العام.

***

المربع الذهبي

عبارات مكررة و تتغير كلمة واحدة، إذا باعت الحكومة مصنعاً قالت: "مع حفظ حقوق العاملين". و إذا باعت بنكاً قالت: "مع حفظ حقوق المودعين". و إذا باعت التأمين الصحي قالت: "مع حفظ حقوق المنتفعين". أفكر من الآن في العبارة التي ستقولها الحكومة عندما تبيع شبكة الصرف الصحي.

***

معتدل

الحقيقة أن الحزب الوطني يعبر عن نبض رجل الشارع نهاراً، و يعبر عن شخيره ليلاً، و إذا لم يستطع أن يغير في الأفعال فليغير في الأقوال، فمنذ آلاف السينين و نحن نؤكد أن موقع مصر ممتاز و مناخها معتدل و خطاب السيد الرئيس تاريخي، فمن باب التغيير لماذا لا نقول أن موقع مصر تاريخي، و مناخها ممتاز و خطاب السيد الرئيس معتدل؟ خاصة و أننا كنا زمان دولة معتدلة في المناخ و أصبحنا دولة معتدلة في السياسة و على رأس مجموعة الدول غير منحازة لغير أمريكا. دائماً نمر بمنعطف و كأننا نركب عربات الملاهي، دائماً الظروف حساسة و الانتخابات نزيهة و الأوضاع مستقرة. لماذا لا تكون الظروف مستقرة و الانتخابات حساسة و الأوضاع نزيهة؟ لماذا دائماً نطلب قهوة و نشرب شاياً؟ تؤكد "الحكوميات" أن سيادته لا يشغله إلا محدود الدخل، فيظن محدود الدخل أن سيادته حاطه في دماغه و سوف يسعده. و تؤكد "المعارضات" أن سيادته لا يشغله إلا محدود الدخل فيظن المحدود أن سيادته حاطه في دماغه حتى يذله و يشحِّته، و كلاهما متطرف؛ بل أن البعض يؤكد أن سيادته لا يشغله محدود الدخل أصلاً؛ بل إن محدود الدخل هو المشغول بسيادته في التأييد و المبايعة. و التغيير في الكلمات هو سنة الحياة، فمصر كانت أم البلاد و أصبحت أم الفساد. و هو ما دفع رجل مثل السكرتير العام للأمم المتحدة أن يمتنع عن زيارة مصر خوفاً من أن يبيعوه، لأ اسمه "بنكي مون" و يفكر أن يغيره قبل الزيارة إلى "عوضين" حتى إذا باعوا عوض يبقى للأمم المتحدة عوض. عليه العوض.

***

مواطن و مخبر و حرامي

لا يمر يوم إلا و يسقط مصريون شهداء في ساحة الوغى في الخطوط الأمامية في الجبهة على أرض البوليس أو داخل مربع العمليات في التخشيبة، مطلوب قوات دولية في دارفور و في غرفة المأمور. هذه الحوادث تؤكد أن هناك خللاً في المواطن المصري؛ إما أنه يحمل وجهاً مستفزاً أو أنه مثل أسماك التونة عندما تقترب نهايته يهاجر بالغريزة ليموت في غرفة المأمور، فيقطع آلاف الأميال البحرية حتى يصل منهكاً إلى أرخبيل الملأمور و يفارق الحياة هناك. طبقات المجتمع ثلاث، مواطن و مخبر و حرامي، و المخبر يقهر المواطن لصالح لصوص الوطن. و المواطن و المخبر سواء أمام الدستور لكن ليس أمام المأمور؛ إذ تضع لائحة الشرطة قفا المواطن وديعة في يد أخيه المخبر، و تلزم المواطن أن يكتب وصيته قبل أن يدخل باب القسم. في احتفالات الشرطة تستعرض أمام المسئولين فنون القتال و الاشتباك مع المجرمين ثم مع المواطنين العاديين من أول خلع الملابس و الجلد و الصعق حتى مصرع المواطن و تسليمه لحانوتي القسم، لكن يهون علينا أن من لم يمت بالمخبر مات بغيره، و أصبح المصريون لا يلقون بالحجارة إلا على مكانين: على الشيطان في الحج، و على الشرطة في الأقسام. فيا أخي المخبر و يا أختي المخبرة اتقوا الله فينا و تذكروا أن كل واحد فيكم له أخ و أخت و قفا.

***

مؤتمر سمسم

المؤتمر العام للحزب الوطني هو مؤتمر "سمسم" تبدأ وقائع المؤتمر بأن يعطس أحد كوادر الحزب فيسأل الأمين عن مين العاطس الباغي، فيقسم الجميع أنهم لم يعطسوا فيتم التوصل إلى قرار تاريخي بأن هناك أحداً في المغارة. هذا العام تقرر تغيير الصراخ ليكون "حديد–اسمنت–سيراميك–أسمدة–زيوت" أحمدك يا رب. و بعد إعادة توزيع التوكيلات يبدأ الأعضاء في الحديث ليؤكدوا أنهم مع طهارة اليد و ضد طهارة الإناث، و أنهم لن يفرطوا في هذا الوطن الذي رزقهم الله به بعد مشقة. و أنهم سوف يعمقون الديمقراطية بحُفر الشوارع الرئيسية. ثم يتحدث مسئول الشباب و يؤكد أن الناس الكبيرة بركة، و أنه يطلب تعديلاً يسمح لهم بالقيادة حتى بعد الوفاة. في ختام المؤتمر تقدم التورتة على شكل خريطة مصر و تسمع من يقول "اعملوا حساب اخوانكم الهربانين". البعض يؤكد أن "سمسم" سيكون أعظم من "كركر"و سيقضي على مشكلة العطش بتوزيع المياه المعدنية على الحاضرين؛ بل سيحدد ملامح مصر لعدة قرون و حوافر قادمة. أخي المواطن قاعد ليه؟ روح يا قاسم جرّب بختك.

***

إعلام عم عوض

في العاشرة من صباح الاثنين ٥ يونيو ١٩٦٧، ارتديت الزي العسكري لطلبة الثانوي (الفتوة) و توجهت إلى مدرستي. في الطريق إلى المدرسة كانت طائرات إسرائيل تتساقط عبر الأثير و كان عددها يتزايد و أنا أنتقل من شارع إلى شارع، و عندما وصلت إلى باب المدرسة فكرت في الرجوع؛ فقد كان سلاح الجو الإسرائيلي تقريباً انتهى و سقط، و بالتالي لم يعد أحد في حاجة إلى مجهودي، لكن منظر الطلبة المحتشدين أمام المدرسة أغراني بالبقاء، كان عم عوض فرّاش المدرسة يجلس أمام باب المدرسة المغلق –فقد كنا في أجازة– و لا يسمح بالدخول إلا لمن يدفع بريزة، كان يصرخ: "قرب.. قرب، وقع طيارة إسرائيلي ببريزة". كان الطالب يدفع البريزة و يخرج بعد دقائق و يَعد عم عوض وراءه "١١٢" و يدخل طالب آخر و يَعد عم عوض "١١٣ طيارة" و هكذا. كان ابن عم عوض في حوش المدرسة يطيِّر طيارة ورق سوليفان عليها علم إسرائيل، و من يدفع بريزة يلقي عليها حجراً و هو و بخته فقد تقع الطيارة و يَعد عم عوض وراءه "١١٤". في حرب أكتوبر كنت قائداً لإحدى السرايا عندما تغير الإعلام العسكري و صحح أوضاعه، لذلك انتقل إعلام عم عوض إلى مجالات أخرى. يقول عم عوض بناء مليون شقة للشباب. مليون و واحد مليون و اتنين و.... توفير نصف مليون فرصة عمل للشباب. نصف مليون و واحد.. و اتنين.. و تلاتة.. و عم عوض جالس على باب المدرسة المغلق يَعد وراء الخارجين. استصلاح ربع مليون فدان. ربع مليون و واحد. و اتنين، و تلاتة. و ابنه في حوش المدرسة يطيِّر الطيارة الورق و يملي عليه النتيجة (الطالب دة وقع الطيارة. الطالب دة بنى شقة. الطالب دة استصلح فداناً). أربعون عاماً على يونيو و عم عوض ينتقل بإعلامه من مجال إلى مجال، و الحال هي الحال و الحقيقة خلف الباب. قابلني زميل قديم ممن أوقعوا الطيارة و أخبرني أن عم عوض مات و ابنه أصبح رئيساً لتحرير إحدى الصحف الحكومية.

***

مصلحة النفي العام

أكثر أقسام وزارة الداخلية نشاطاً و حيوية هو "مصلحة النفي العام" و هي ثلاثة أفرع فرع "لم" لنفي الماضي، و فرع "لا" لنفي الحاضر، و فرع "لن" لنفي المستقبل. و "مصلحة النفي العام" تسارع إلى نفي أي حادث أو واقعة أو مسئولية لرجال الشرطة، و على طريقة الأمن الوقائي يتم النفي أحياناً قبل وقوع الحادث أو الواقعة، و هي قدرة ترجع إلى استخدام المصلحة لتكنولوجيا الاستشعار عن بُعد. و قد تمر أيام دون حوادث لكن مصلحة النفي العام أو الموت الزؤام لا تتوقف عن إطلاق (لم و لن ولا) في الجو، إذ ربما تكون هناك شائعة تمر أو حادثة تقع فمن باب الاحتياط يلزم وجود مجموعات نفي تغلف سماء الوطن و تنفي أي واقعة في مهدها و قبل أن تقع. و مصلحة النفي العام قد تستعين ببعض السادة اللواءات المتقاعدين الذين تصادف أن يكون تقاعدهم في التليفزيون لرسم صورة وردية لكل واقعة تعذيب، و هي صورة تشجع السياحة الداخلية عن طريق إغراء الناس بقضاء إجازاتهم و أيام العيد في التخشيبة. أما الصحف الحكومية فتكاد تخرج عن حدود العقل في رسم صورة مركز شرطة كوكب عطارد: ضابط يتبرع بدمه لإنقاذ قطة – أمين شرطة يترك شقته لأطفال الشوارع – مخبر يبكي و هو يحرق مواطناً – مواطنون يتبرعون لبناء تخشيبة مركزهم. قابلت كثيرين من رجال الشرطة الشرفاء و قد همسوا لي أن هؤلاء المتقاعدين في التليفزيون لا يتبعون الشرطة؛ بل يتبعون القوة التنفيذية و يبقى الأمل في هؤلاء الشرفاء أصحاب الثوب الأبيض و القلب الأبيض و اليد البيضاء، و أرجو ألا تسارع "مصلحة النفي العام" إلى نفي وجودهم.

***

كل يوم من دة

مصر تنضم للأوبك بل ترأس الأوبك بل تعمل أوبك لوحدها إذا كان ما تنشره صحف الحكومة حقيقي، يوم اكتشاف حقل بترول و يوم اكتشاف حقل غاز. بل أخيراً تم تقسيم العمل فتخصصت الأخبار في اكتشافات البترول، و الجمهورية في اكتشافات الغاز، و الأهرام في اكتشافات المعادن. في فيلم "مراتي مدير عام" يزهق صلاح ذو الفقار فيصرخ في وجه زوجته شادية قائلاً:

– "إيه ده؟ كل يوم فراخ، كل يوم فراخ"، فترد شادية:

– "دي مش فراخ، دي مكرونة يا حبيبي". فالمواطن زهق، كل يوم بترول، كل يوم بترول، لكن الجمهورية ترد دة مش بترول، دة غاز يا حبيبي. و هذه الاكتشافات الوهمية صارت مادة للتندر بين المواطنين، و أصبحت الصحف تقسِّم الخبر إلى نوعين، أخبار صحيحة و اكتشافات بترولية. و لن تعود المصداقية إلا إذا اختصت صحيفة بحقول الفجل و الأخرى بحقول الجرجير.

***

العبور

صرف التليفزيون المصري ربع مليون جنيه من أجل "لوجو" جديد رغم أنه لا يحتاج إلى ما يميزه؛ فالمشاهد يميزه بذبابة الاستوديو؛ إذ لا يوجد تليفزيون فيه "دبان" إلا التليفزيون التابع –يا للعجب– لحكومة المبيدات. و المناسبة تصريح الأمس لرئيس الحكومة الذي يؤكد أن حكومته تحارب الفساد. حكومة فشلت في محاربة ذبابة الاستوديو فكيف تحارب غول الفساد، ثم يتحدثون عن العبور الاقتصادي! و قصة العبور الاقتصادي بدأت منذ خمس سنوات، عندما كان رئيس مؤسسة اقتصادية عامة يتبعه مبنى صغير في نفس الشارع، و أراد الرجل أن يستغله اقتصادياً و يحقق العبور فماذا فعل؟ راح الرجل يعبر الشارع مرتين و ثلاثة يومياً من المبنى الرئيسي إلى المبنى الفرعي، و بالعكس (دائري) حتى ظن البعض أنه أتوبيس؛ فقد حفظه رواد الشارع دون أن يعرفوا سر عبوره الاقتصادي اليومي المتكرر، إلى أن عرفنا أن الرجل وضع لنفسه نصف باكو كبدل انتقال في عبور الشارع؛ أي أن "المرة" بألف جنيه و الحسَّابة بتحسب، و رغم كشف المستور زاد أبطال العبور و تضاعفت المكافآت الوهمية في كل قطاعات الدولة، و تؤكد الحسابة، اللي بتحسب، أنه رقم يكفي للصرف على التأمين الصحي. و الحل: إما أن تُوقف الحكومة صرف هذه المكافآت، أو على الأقل تصرف ذبابة التليفزيون من الاستوديو.

***

تحسين الصورة

رجال الأعمال فيهم الصالح و الطالح و العصامي و الحرامي، و تطالب الحكومة و المسئولون و آخرهم السيد جمال مبارك بضرورة تحسين صورة رجال الأعمال، و رغم أن الناس تطالب أولاً بتحسين صورة الرغيف، و رغم أن رجال الأعمال هم المسئولون بأفعالهم عن رسم صورهم السلبية، فإنني أشارك بهذه الاقتراحات لتحسين الصورة:

– عَمل دعاء لرجال الأعمال يتلى عقب كل صلاة.

– تدريس حقوق رجال الأعمال في المدارس و دور الحضانة.

– تحويل مسمط الكوارع الذي بدأ فيه "الريان" إلى مزار سياحي تسيطر عليه روح الوطنية و روح الخل.

– توضيح دور "هدى عبد المنعم" في تحرير المرأة.

– برنامج بعنوان "بنوك و ودائع" يوضح دور رجال الأعمال في تحرير الوطن من الودائع.

– برنامج "في المنفى" يربط بين نضال "أحمد عرابي" في سيلان و نضال "أشرف السعد" في لندن.

– إعادة إنتاج فيلم "تيتانيك" على أن يكون البطلان هما "ممدوح إسماعيل" و "علية العيوطي".

– برنامج عن الطهو بعنوان "رشاوي و عكاوي" يوضح أصول طهو الصفقات.

– أن يرفع تمثال "طلعت حرب" و يوضع في مكانه تمثال "إيهاب طلعت".

– تسمية الشوارع الرئيسية بأسماء الهاربين.

– الاحتفال سنوياً بيوم هروب "جورج حكيم"، و جعله يوماً للوحدة الوطنية.

– تنظيم رحلات للمدارس لزيارة "رامي لكح" باعتباره أثراً قومياً.

– ترشيح "توفيق عبد الحي"، باعتباره أول الهاربين، لرئاسة الإنتربول، فهو صاحب أول طلعة جوية إلى أوروبا.

– تعديل الوصايا العشر و حذف "لا تسرق".

– تحسين مناخ الاستثمار بقطع النور عن البنوك.

– استبدال فسيخ شم النسيم بالتونة تخليداً لهروب "دوارف" ملك التونة.

– إقامة نصب تذكاري لرجال الأعمال مع التركيز على النصب أكثر من التذكاري.

***

(عبد التواب)

ليس الجماعات فقط هي التي تستغل الدين، فمثلاً عندما ترتدي الحكومة العمامة و تؤذن للصلاة في التليفزيون الرسمي، يكون أكثر من نصف سكان الدولة الواقعين شرق خط طول ٣٠، قد انتهوا فعلاً من الصلاة. و استغلال الدين ليس قاصراً على الحكومة و الجماعات بل الأفراد أيضاً. كان الإمام محمد عبده جالساً مع المعتمد البريطاني يؤكد له شمولية القرآن، و كان الخادم مستر "كوك" يقدم لهما القهوة، عندما سأله المعتمد:

- "كل شئ موجود! هل مستر "كوك" موجود أيضاً؟" فقال الإمام، مشيراً إلى سورة الجمعة:
- نعم، (وَ تَرَكُوكَ قَائِماً).

و قد حاول البعض –تعسفاً– الربط بين (لا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَان) و صعود أول رائد فضاء عربي، الأمير "سلطان" إلى الفضاء، و كلها أمور يبدو فيها التزيُّد و التنطع، و قد يكون الإمام محمد عبده يقصد المداعبة، و قد يكون الأمير سلطان غير راض عن هذا الربط، لكنني تذكرت هذا عندما رأيت جاري "عبد التواب" يصلح و يدهن و يزيِّن المسجد الصغير المجاور لنا بمناسبة اقتراب رمضان، و عندما انتهى من إصلاحاته و ترميماته كتب على باب المسجد:

(إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الآخِرِ) ثم بين قوسين (عبد التواب).

***

زيارة مفاجئة

يزعم البعض أن يوم الجمعة فيه ساعة نحس؛ و هي الساعة التي تزورني فيها حماتي و التي مدتها بعد ذلك إلى ساعتين بعد أحداث سبتمبر، ثم إلى ثلاث ساعات بعد التعديلات الدستورية، ثم أخيراً قررتْ الإقامة الدائمة عندنا بعد انقطاع المياه عن قريتها بحجة الوضوء عندنا، مؤكدة لي أن بن لادن هو ابن حميدو. و أن الظواهري هو أحمد رمزي. و في أول يوم لإقامتها عندنا أتانا السعد؛ فقد انهار السقف و أعلن الدكتور نظيف تحويل قريتها إلى قرية ذكية؛ و معنى ذلك أنها لن تعود إليها، ثم أصدر الدكتور نظيف أوامره إلى المحافظين بتوفير السلع و الخدمات للمواطنين بمناسبة دخول المدارس و حلول رمضان، و من يومها لم نعرف الراحة ؛ إذ يبدو أن حماتي كانت تتبع محافظاً نشطاً، فقد انهالت علينا التليفونات من محافظ القرية التي تتبعها حماتي بمعدل تليفون كل ساعة يسألها عن احتياجاتها لتوفيرها، ثم يقول لها المحافظ "مع تحيات الدكتور نظيف" و يضع السماعة. في نفس اليوم و في الثالثة فجراً استيقظنا مفزوعين على صوت جرس التليفون، فردِّيت بنفسي فقال المتحدث: "أنا محافظ الإقليم التابعة له قرية حماتك، من فضلك لم نعرف بعد الخدمات التي تفضلها حماتك حتى نوفرها لها".. كان ابني الطفل يقف بجواري و أنا اتحدث فقال لي: "بابا، بابا قل له على المصاصة". لكنني لم أنتبه له و قلت للسيد المحافظ إن حماتي تشكو من روماتيزم و التهاب مفاصل، و أن التأمين صرف لها "نفتالين" فوعدني المحافظ ببناء مستشفى جديد على اسمها ثم قال لي "مع تحيات الدكتور نظيف". و وضع السماعة و نام. لم نجد حلاً إزاء هذه المكالمات التليفونية إلا أن نقطع سلك التليفون قبل أن ننام. في السادسة من صباح نفس اليوم سمعت طرقات عنيفة على باب الشقة ففتحت فوجدت رجلاً مهيباً قال لي: "صباح الخير أنا محافظ الإقليم، تليفونكم مقطوع، لذلك فضلت أن أحضر بنفسي لأعرف طلبات حماتك من السلع و الخدمات:. و قبل أن أنطق بكلمة واحدة قال لي: " مع تحيات الدكتور نظيف" ثم انصرف.

***

ديسكفري

أقمنا احتفالية بمناسبة ذكرى هبوط أول شيخ على سطح الفضائيات و هو الشيخ الذي أفتى بأن أكل الكوارع مع صديق يحوِّله إلى أخ في الرضاع، و هو نفس اليوم الذي بدأت فيه رحلة مكوك الفضاء "ديسكفري" لاستكشاف المريخ، و التأكد من توفر المياه فيه و عدم توفرها في محافظة كفر الشيخ، و من يومها استمر التنافس العلمي بين محطة "كيب كينيدي" الفضائية و محطة "اقرأ" الفضائية، الأولى تقدم البحوث العلمية، و الثانية تقدم البحوث الدينية التي تثبت أن مركبة الفضاء كافرة حتى من اسمها (ديس كفري)، و مع ذلك فإن محطة ديسكفري جاملت هؤلاء المشايخ عندما عادت بثلاثة كيلوجرامات كعينة من سطح المريخ، و معها أكثر من خمسة أطنان من لحمة الرأس لنتأكد أن محطة "ديسكفري" أخت لمحطة "اقرأ" في الرضاع.

***

الكفيل

إرادة الله بين "كن" و "يكون"، و إرادة الحاكم بين "تولى" و "توفى"، و إرادة المستثمر بين "ألا دونا" و "ألا تريه"، و إرادة الكفيل بين "عس" و "هش". "عس" أي ابحث عن رزقك لأقتسمه معك. و "هش" أي ارجع لبلدك. كنت قد حصلت على دبلوم الجراحة المنزلية و دورة ألعاب و فرقة صاعقة أهّلتني للعمل كمترجم فوري و بالتقسيط. و سافرت للعمل في الخليج حيث استقبلني الكفيل على باب الطائرة و أخذ أوراقي و وزنني ثم ربطني بحبل و وضع علامة الجودة على جبهتي. في الطريق قال لي الكفيل: "عس". فظننت أنه يقصد "هس" فتوقفت، و يبدو أن وقوفي كان في مكان غير مخصص للحيوانات؛ إذ حضرت جماعة الأمر بالمعروف و اقترح أحدهم قطع يدي و رجلي من خلاف، و قال رئيسهم و هو يبظر في وجهي:

– "بل الذبح، الذبح"! لكن كفيلي – أكرمه الله – حفاظاً على ثروته البشرية، دفع الدية و سحبني. و في الطريق سألني الكفيل:

– "إيش تعمل في بلدك"؟ فقلت له:

– "أعمل مذيعاً في القناة الإنجليزية". فادّعى العلم و قال:

– "القناة الإنجليزية! تقصد بحر المانش". فقلت:

– "لا". و يبدو أن "لا" عندهم مثل الخمر و الميسر و لحم الخنزير محرمة، إذ ساقني إلى مخفر الشرطة حيث لم يستطع أن يحكي عن "لا" و لذلك ادّعى أنني عطست أمامه في أحد أيام التشريق، فقطعوا أذني و أودعوني في القبو في انتظار دفني في الربع الخالي. في القبو لاحظت أنهم يخزنون بجواري نبيذاً معتقاً.

***

دائرة الطباشير

تخوض إيران الآن حرب شوارع، تشارك فيها الشرطة و أجهزة أمنية و الحرس الثوري. و ميدان حرب الشوارع هو محلات الحلاقة التي تراقبها الشرطة و تداهمها و تفتشها لمنع الشباب من قص الشعر على الطريقة الأمريكية أو الأوروبية، "تايسون" أو "كابوريا" أو "نصف كلب" و لمنع الشابات من التزين في هذه المحلات و ارتداء النصف حجاب الذي يُظهر مقدمة الشعر. إيران ترفض النصف كلب، و ترفض أيضاً النصف حجاب لأنها ترفض أنصاف الحلول. و هذا هو الرد العملي على ضغط و حصار أمريكا لإيران. في مصر قررت جماعة الإخوان المسلمين، و هي جماعة ظلامية معروفة، الرد على ضغط و حصار و استبداد و فساد الحكومة بتصعيد الحملة ضد ختان الإناث، و هو الرد العملي على هذا الضغط و الحصار. عندما دخل اللص المنزل رسم للزوج دائرة بالطباشير على البلاط، و أمره أن يقف داخلها و لا يتعداها، ثم راح يجمع عفش البيت و يغتصب الزوجة، فقرر الزوج أن يغيظ اللص ففكر أن يُخرج قدمه خارج دائرة الطباشير. الأحزاب الدينية داخل دائرة طباشير منذ مئات السينبن، و من يتحالف معها يقف داخل هذه الدائرة كصديق للزوج.

***

و إلى الترام نعود

ثلاثة يعلمونك الصبر؛ صيد السردين، و ركوب الترام، و الكتابة في الصحف. يُجري سائق التاكسي كشف هيئة سريعاً للمواطن قبل أن يقبله. و في هذه اليوم كنت أرتدي قميصاً مربعات يوقف الرزق و لا يوقف التاكسي، لذلك رفضوني و اقترحت أن يكون القبول في التاكسيات عن طريق مكتب التنسيق، و قلت: "نحن من الترام و إلى الترام نعود". في الترام هنَّأني الكمساري بسلامة الصعود، و رفض أن يقطع لي تذكرة و أعطاني سيجارة و عرض عليّ أن أتزوج أخته، فأخبرته أنني متخصخص لبنت عمي، ثم إنني مفلس و مضروب في القسم، فصرخ أحد الركاب قائلاً لي:

– "لأ إنت محدش ضربك و ما حدش عذبك إنت دخلت القسم بتاريخ ١٧ / ٨ و خرجت في نفس اليوم بدون إصابات". سألت الكمساري عن هذا الشخص فقال لي:

– "ده لواء متقاعد، أصل بيدعموا الترام علاوة على الكمساري و السائق، بلواء متقاعد للرد على أسئلة الركاب، و نفي أي واقعة تعذيب". سألني أحد الركاب:

– "انت بقالك مدة ماركبتش ترام". قلت: "نعم". فقال:

– "دلوقتي طقم الترام بقى كمساري و سواق و مفتش و لواء متقاعد". ثم سألني: "تحب تجرب"؟ قلت: "اتفضل". فقال الراكب:

– "أنا لي أخ مات في القسم". فصرخ المتقاعد:

– "هذا غير صحيح، أخوك حضر القسم بإرادته و كان تحت تأثير المخدر، و أراد فرض إتاوة على السيد المأمور، فجمعوا له في القسم مبلغاً أخذه و انصرف في مساء نفس اليوم". في هذا الوقت ترك السائق الترام و وقف ساعة في طابور الخبز فاعترض الركاب، لكن المتقاعد قال:

– "الركاب هم الذين أوقفوا الترام و طردوا السائق و أجبروه على الوقوف في الشمس تحت التهديد".

***

مجلس منُّه فيه

يظن كثيرون أن المجالس القومية حرام في رمضان، و أنها من مبطلات الصوم رغم أنها لا تدخل جوف أي مواطن. ففي مصر برنامجان لهما الفضل في الكوميديا، الأول: برنامج "ساعة لقلبك" الذي كان يضم الدكتور شديد و الدكتور الحداد و آخرين، و الثاني: "ساعة لبطنك" الذي يؤمن أن من له ضهر و قفا لا ينضرب على بطنه، و يشتهر بين المثقفين باسم المجلس القومي لحقوق البني آدم، و بين العامة باسم مجلس الصلح، و يضم الدكتور غالي و الدكتور أبو المجد و آخرين، و هذا المجلس يؤمن بأن مصر عروسة تزوجها الحزب الوطني عندما قدم لها الشبكة (شبكة الصرف الصحي) لهذا فإن دوره أن يصلحها إذا غضبت و أن يعقّلها إذا تمردت. و إذا كانت المباحث تمسك العصا من طرفها للتعذيب، فإن عليه أن يمسك العصا من المنتصف للتحطيب، فلم نسمع أن المجلس تعقَّب مخبراً بل أن المخبرين هم الذين يتعقبونه. و السيد رئيس المجلس و السيد نائبه هما في الحقيقة في غاية الاحترام، و يقترب سنهما من مائتي عام (حوالي ١٧٠ سنة) فكيف لهما أن ينتقلا من محبس لمحبس و من سجن لسجن و من قسم لقسم؟ فالناس في هذه السن تنتقل فقط من مستشفى لمستشفى – أطال الله أعمارهما و منحهما الصحة – فنحن نلقي عليهم أعباء فوق الطاقة، خاصة أن العالم مقبل على أزمة طاقة تستدعي التفكير في بيع هذا المجلس و علاج و تعويض ضحايا التعذيب بحصيلة البيع. لا أعرف متى صدر آخر بيان من هذا المجلس ضد التعذيب و الاعتقال، لكن هناك بردية من الأسرة السادسة تتحدث عن هذا الموضوع و تؤكد أن المجلس مش ساكت، لكنه يرسل مندوباً عنه لحضور حفلات التعذيب.

***

في صالون الحلاق

أعد الآن كتاباً عما يدور في صالونات الحلاقة، إذ تعقد المؤتمرات الاقتصادية و يجتمع فيها أناس لا يعانون للحديث عن المعاناة. و يعدِّل الدستور فقهاء ليحكموا به البسطاء و عرفنا ما دار بالكلمة و الحرف في صالون العقاد و صالون مي زيادة و لويس عوض و حديث الأربعاء لطه حسين و أصبحنا نعيش في "شات" يجمع المثقفين و مكلمة نخبة من صالون العقاد إلى صالون الحلاق تختلف المفردات و المعاني، و إن كان المواطن داخل و خارج الصالون يطاطي الراس. تركني أحد أصحاب الصالونات و وجهي ممتلئاً بالصابون و توجه إلى المحكمة لحضور جلسة نفقة و عندما عاد في المساء لم يعتذر لي بل إستكمل حديث الصباح.

– أنا بيحلق عندي هنا راجل كبير أوي.

– عنده كام سنة؟

– لأ كبير يعني وظيفته كبيرة، بس دلوقتي على المعاش.

– ماله الراجل دة؟ حلق و هرب راح لندن؟

– لأ. اللي يهرب للندن اللي بيحلقوا للبنك، مش اللي بيحلقوا عندي، الراجل دة بيحلفلي إن البلد دي متباعة لخمس أشخاص و إن ميعاد التسليم قرّب. قرّب قوي.

– ما قالكش إمتى؟

– بيقول بالكتير السنة الجاية.

– قوللي يا أسطى: إنت سمعت عن صالون العقاد؟

– إنت فاكرني باخرف؟ هوه يعني لازم الكلام دة يكتبه أنيس منصور عشان تصدقه؟

– أنا مصدقك. بس قوللي: بيحلق عندك إمتى علشان أشوفه؟

– من يوم ما قال الكلام دة مش بيحلق عندي.

– أمال بيحلق فين؟

– بيحلقوله في السجن.

***

البلبلة أنثى البلبل

لعن الله قوماً يعرفون "البليلة" و لا يعرفون "البلبلة"، فقد يقضي الإنسان نصف عمره في السجن بسبب "البلبلة" ثم يخرج دون أن يعرف معناها. و "البلبلة" هي إحدى جرائم المناطق الحارة، مشتقة من بابل، إذ أنهم بعد أن بنوا حدائقهم المعلَّقة زعم أحد الكُتاب أنهم بنوها بدون ترخيص، فقالوا أن الرجل بَلبَل أي أصبح مبلبَلاً و حبسوه، و صار هو أول "مبلبل" في التاريخ،و جاء بعده طابور طويل من المبلبلين الذين بلبلوا على أنفسهم دون أن يهتم بهم أحد، و الطبيب الحاذق يستطيع أن يفرق بين البلبلة و باقي أمراض الصيف، فمثلاً سرقة البنوك ليست بلبلة بل جدعنة، و غرق العبَّارات ليس بلبلة بل معجنة، و قتل المواطنين في أقسام الشرطة ليس بلبلة بل فرستة. و "البلبول" هو ضحية البلبلة فهو متبلبل، كما أن البلبلة هي أنثى البلبل إذا طارت بأموال التأمينات. و يتبلبل الإنسان عادة بعد سن البلوغ إذ يبدأ طفلاً و هو بلية، ثم في سن النضج، ثم تظهر عليه أعراض البلبلة، و يتحول إلى "بلبول لا يكتب و لا يقول"، و يسمح القانون لأي مواطن يشعر أنه تبلبل من إحدى الصحف أن يتقدم بشكوى يثبت فيها بالأشعة و التحاليل أنه تبلبل و ظهرت عليه بقع حمراء، كما أن من حقه أن يتبلبل أو حتى و هو نائم. و يُقال إن دولة البلابلة لم يكن على علمها نسر بل بلبل يحمل في منقاره شكوى. و شر البلية أو البلبلية ما يضحك.

***

إزي الصحة؟

الضابط: إسمك إيه؟

المواطن: اسمي في الشغل حسن، و بطاقة الرقم القومي خليتني ميخائيل و في البيت الحاج و قدام حضرتك فوزية.

الضابط: قول لي يا فوزية، بتشتغل إيه؟

المواطن: في الملف ساعي، و في البطاقة مخزنجي و قدام حضرتك مرشد.

الضابط: قول لي يا فوزية: كنت فين يوم صحة السيد الرئيس؟

المواطن: أنا ماليش دعوة.. أنا كنت نايم.

الضابط: معاك حاجة تثبت؟

المواطن: أيوة معايا، جايب معايا المخدة.

الضابط: و أولادك كانوا فين يوم صحة السيد الرئيس؟

المواطن: بعد إذن حضرتك، هوه يوم صحة السيد الرئيس كان موافق يوم إيه؟

الضابط: من أسبوعين تقريباً.

المواطن: أولادي سافروا قبل صحة الرئيس بيومين، و ماحضروش الموضوع دة؟

الضابط: آمال بتقعدوا ع القهوة تتكلموا في إيه؟

المواطن: ح أقول لحضرتك بصراحة، الحاج متولي بيتكلم عن صحة..

الضابط: أيوه، صحة إيه؟

المواطن: عن صحة المعلومات، و الحاج خليل بيتكلم عن صحة العباسية لأنه بيشتغل هناك.

***

ليلة الحادث مجانيش نوم

سنوات طويلة لم أقابل قريبي ضابط الشرطة المتقاعد، و عندما رأيته فجأة في مول شهير جريت نحوه بفرحة فاستوقفني و نظر إلى عيني بعمق و سألني:

– "إنت كنت فين ليلة الحادث"؟ فذكّرني بقصة حقيقية حدثت لي في مارس ١٩٧٤، بعد تحرير مدينة القنطرة؛ إذ استدعاني القائد و أفهمني أن المطلوب أن يعرف الجميع أن المدينة عادت إلى الإدارة المدنية. فنصبت خيمة جديدة في مدخل المدينة و مثبت لافتة علقتها عليها "قسم شرطة القنطرة شرق" ثم توجهت إلى أقرب مديرية أمن و بالاتفاق اصطحبت مقدم شرطة و أربعة جنود و أوصلتهم إلى الخيمة و أفهمتهم أن طعامهم و شرابهم سيصل إليهم من وحدتي، و إنهم إذا احتاجوا إلى شئ عليهم أن يتصلوا بي للتنسيق. في اليوم التالي و على مدخل المعبر رقم ٤٨، كنت أرتدي ملابسي المدنية عازماً النزول إلى الإسكندرية في إجازة عندما استوقفني المأمور و سألنس:

– "إنت رايح فين؟ ممكن أشوف بطاقتك"؟ كان قريبي لا يزال ينظر في عيني و يسألني:

– "إنت كنت فين ليلة الحادث"؟ و تخيلت أنه سيقول لي: أنا مضطر أقبض عليك. استدعيت من الذاكرة ردي على المأمور منذ ثلاثين عاماً لأرد به عليه، و كان على ما أظن صوتاً سكندرياً طويلاً ينبعث من الأنف. أشياء كثيرة في مصر تحتاج إلى تغيير منها المأمور و قريبي و منهج الشرطة في التعامل مع البشر.

***

تحب تشرب إيه؟

في خطب الجمعة و مقالات رئيس التحرير صحف الحكومة و المسلسلات كانت التعليمات هي؛ تحسين صورة رجال الأعمال، و إن أمكن تحسين صورة الرغيف. هذا العام بدا أن التعليمات هي تحسين صورة رجال الشرطة.
معظم مسلسلات رمضان أبطالها ضباط شرطة لا تفرقهم عن الملائكة سوى أن أولئك ذوي أجنحة و هؤلاء ذوي نجوم يحومون في المديرية و يطوفون حول التخشيبة و يرحبون بالشاكي و يطلبون له عصيراً و بعد أن يهدأ يطلبون له قهوة ثم يجففون له دموعه، و يطلبون العشاء، كل هذا و الكرباج الملعون و شقيقته الفلكة، لا يظهران في الكادر بأوامر المخرج أخرج الله أحشاءه. هذه المثالية جعلت كثيرين يدعون عند الإفطار أن تكون نهايتهم في أرض مبروكة مثل مديرية أمن الجيزة. بل أن المتهمين هم الذين يلقون بأنفسهم من الشبابيك (حدث و الله في مسلسل يسرا).
تضم قائمة الشرف هذا العام على سبيل المثال لا الحصر؛ العميد سامي العدل و العقيد ممدوح عبد العليم و الرائد ياسر جلال و آخرين، و لأن الله سبحانه و تعالى جعل في قضائه لطفاً فقد أعمى المؤلفين و المخرجين فلم يظهروا لنا اللواء المتقاعد –المبرراتي– في تليفزيون هذا العام. و إن كان البعض يزعم أنه يظهر في البوتاجاز.

***

"البابا" و "البابارانزي"

"البابارانزي" لم يكن يهمهم إلا الصورة و الخبر و الربح و التوزيع. و صحافتنا مع الأسف امتلأت بأمثال هؤلاء. من أجمل الشخصيات المصرية المواطن "نظير جيد" الشاعر و الأديب و الصحفي الشهير بالبابا شنودة الثالث بطريرك الكرازة المرقسية، و الذي جعلته "البابارانزي" المصرية هدفاً لها، حتى إن أحد الصحف التي صارت تنطق بلسان الإخوان المسلمين نشرت أول أمس و في صفحتها الأولى و بالبنط العريض أن الأمن في الكنيسة منع مواطناً من الصياح أثناء العظة، و كأن المطلوب أثناء العظة أن يصيح المواطنون و يرقصون و يطبلون حتى ترضى الصحيفة و تنام مطمئنة على أرصفة الباعة. و بعض الصحف كـــ "البديل" و غيرها تتعامل مع البابا و أخباره باحترام لا يتوفر في صحف أخرى أشهرها صحيفة تهتم بالنصف الأسفل من الإنسان. هؤلاء البابارانزي لا تهمهم وحدة وطنية بل وحدة التعامل –إذا اختلطت عندهم أقلام النقد بأوراق النقد– لذلك اقترح عليهم تخصيص صفحة في كل عدد من أخبار البابا بعنوان "باباويات" على أن يكون الخبر الأول "قداسة البابا يرفع دعوة ضد الصحيفة" وقتها سوف نتباكى على حرية الصحافة و نصرخ و نصيح أثناء العظة "يسقط البابا و يعيش البابارانزي".

***

المسمط السياسي

أهل بحري مثلي يعرفون مسمط "سلامة كوارع" الشهير المطل على الميناء الشرقي؛ و الذي كان أول من وضع لافتة "اخدم نفسك بنفسك" بل كان سلامة يقف على باب المسمط ليقنع الداخلين بأن يأكلوا في مكان آخر. و يا ويل الذبون الذي يتجرأ و يطلب كوب ماء أو ملعقة أو بعض الملح، لم يكد الرجل يكتفي بضربه أو طرده؛ بل كان أحياناً يحوله محبوساً مع أحد عماله إلى قسم الشرطة حيث يوجد مأمور يكره المواطنين و يعشق الكوارع. و رغم إغلاق محل سلامة كوارع فما زالت بعض الحكومات تتبنى سياسته و تعمل على تطفيش مواطنيها من على الباب و ترفع لهم شعار اخدم نفسك بنفسك. و "ابني بيتك" و "عالج نفسك" و "علم نفسك بنفسك". و "احترم نفسك". و من لا يعجبه ترسله إلى مأمور أو ضابط أو قاض يكره المواطنين و يعشق الكوارع. رحم الله سلامة كوارع أول من فرّق بين قواعد العلوم السياسية و القطة المشمشية التي كانت تحوم حول المحل. الرجل الذي ربط بين الكوارع و الفساد، فكلاهما له علاقة بالركب.

***

الوزير جاب الثلاجة

بدأ العام الدراسي بالنسبة للطلاب و انتهى بالنسبة للوزراء و دخلوا في الانتحان النهائي و بدأت المراهنات على من يبقى و من يخرج. يحزن الطلاب من كلمة "باق" بينما يفرح بها الوزراء و يفرح الطلاب من كلمة "منقول" بينما يحزن منها الوزراء.

منذ سنوات كان وزيراً مهماً يستعين بالجن ليبقى، و مع ذلك صرفوا الجن ثم صرفوا الوزير. في "الوزير شال الثلاجة" أخذ أحد الوزراء ثلاجته الشخصية من مكتبه ففهم العاملون أنه يلملم حاجياته لأنه سيغادر الوزارة فصموا آذانهم عنه (بالنشر) و منحوه أذناً غير واعية (بالشعر) و أعطوه الطارشة (بالبلدي) إلى أن اكتشفوا أن الثلاجة خرجت لكن الوزير باق لأنها ستنتقم و تعود، أي سيتم إصلاحها و تعود ليحاسب كل من أهمل الوزير في غيابها. في هذه الأيام يجدد بعض الوزراء مكاتبهم و نشاطهم تطبيقاً للمبدأ العكسي "الوزير جاب الثلاجة" للإيحاء أنه باق ولا باقي إلا الله. في بلدنا معيار بقاء الوزير و تقديره هو الثلاجة بشرط أن يحضرها الوزير إلى مكتبه و يبقى في داخلها طوال مدة خدمته دون أن يفك الثلج.

***

إسماعيل ياسين

و الإخوان المسلمين

بعض صحف الشعوذة تؤجر صفحاها للإخوان النصابين لينافسوا إسماعيل ياسين في الفكاهة. فالإخوان –طبقاً للصحيفة– هم الذين أسسوا تنظيم الضباط الأحرار، و هم الذين قاموا بالثورة و فاوضوا الإنجليز و حاربوا الإنجليز و حاربوا إسرائيل و أمموا القنال و بنوا السد العالي و أنشأوا حي شبرا و محلات الكشري، و أدخلوا الميكروباص و الميكروويف و الميكروفيلم و الميكروجيب، و طريقة (٤ – ٤ – ٢) و الظهير الثالث و البنطلون الساقط و فصلونا عن ديار الكفر بالبحر الأبيض، و جعلوا للبحر الأحمر قرنين و و عملوا العصافير الطيران و اخترعوا الكتابة و علم الجبر و كانوا يسمونه الهبر. و كان حسن البنا هو قائد جيوش المسلمين في موقعة عين جالوت و عين شمس و عين الصيرة و كل عين و قصادها صباع. و كان مجدي عاكف هو الذي أسر لويس السادس و احتفظ به حتى يكمل مجموعة اللويسات عنده دستة كاملة (١٢ لويساً و عفشة مية). و اسمحوا لي الآن أن أعتذر لنادية الجندي التي عاتبتها يوماً لأنها دخلت مفاعل ديمونة في أحد أفلامها، لأن ما ينشر أروع من أفلام نادية الجندي. و أن أذكر بالخير محمد أحمد المصري (أبو لمعة الأصلي) فقد طلبت روحه الرحمة فقد فقد الآن لقب أمير الفشارين لصالح الإخوان الفشارين. و الآن إلى سؤال الحلقة: من هو محرر القدس؟ (البنا – الهضيبي – التلمساني – إبراهيم نفخو).

***

رغيف حواوشي

رأيت مسلسلات في قوة "تونس لاندنج" و "بيت صغير في البربري" و "ليالي الحلمية" و "ليالي الأهرام المسائية". لكن لم يشبعني مسلسل مثل "قلب امرأة" فبعد زواج "إلهام شاهين" الفقيرة التعسة من "ماجد المصري" الثري، ظل محور الأحداث في عدة حلقات أنه يشتري لها و لأسرتها هدايا و أطعمة و تورتة و جاتوهات و عصائر و ساندوتشات و حلويات و فواكه حتى تحول المسلسل من "قلب امرأة" إلى "بطن امرأة". و من المنتظر –في حلقة يوم الجمعة المتميزة– أن يشتري لهم رغيف حواوشي و مخللاً. و الحقيقة أنني أحب و أحترم إلهام شاهين و ماجد المصري ومدير ستاد القاهرة و رغيف الحواوشي؛ لكنني أرى أن أموال دافعي الضرائب –ليس في هذا المسلسل بالتحديد– يتم بعثرتها على المنتجين المنفذين و أبناء المؤلفين و أبناء المخرجين و أبناء الممثلين على عينك يا تاجر، مسببين الإحباط لملايين الشباب أولاد الناس العاديين الذين تخرجوا ليجلسوا سنوات على كنبة منزلهم للفرجة على أبناء الفنانين و الفنيين و العاملين في صندوق الدنيا الشهير بالتليفزيون. و الموضوع يحتاج إلى إعادة نظر في كيفية قبول و تنفيذ هذه الأعمال. أما مسلسل "الحواوشي" فإن التصاعد الدرامي سوف يصل إلى ذروته في آخر حلقة من نهاية شهر رمضان؛ حيث نجد أن "ماجد المصري" في آخر حلقة بيعمل لأسرة إلهام شاهين كعك العيد.

***

إستراتيجية مجموعة البرد

شربة ملح الحاج سعيد واكبت النظام الاشتراكي و كانت أسوأ ما فيه طعماً و معنى. أما مجموعة البرد فقد واكبت النظام الرأسمالي؛ و هي أيضاً أسوأ ما فيه لأنها التطور الطبيعي لشربة الحاج سعيد. هكذا تحدث آدم سميث، عضو شرف لجنة السياسات، و أوضح أنها عبارة عن قرص مضاد حيوي و قرص فيتامين (سي) و قرص مسكن، و عند الحديث عن المنفعة الحدية أوضح أنها عديمة القيمة و أنها مثل بعض المسئولين لا تنفع و لا تضر. و رغم إيمان حكامنا بآدم سميث و السيدة الفاضلة حواء سميث فإنهم مصممون على علاج مشكلات الوطن بإستراتيجية مجموعة البرد. كما تعديل لعلاج الدستور و كام كوبري لعلاج المرور و كام مدرسة لعلاج التعليم و كام فيلم لعلاج الإدمان و كام مسلسل لتحسين صورة رجال الشرطة.. دون سياسة واضحة أو منهج علمي لحل حقيقي، حتى تحول الوزراء أنفسهم إلى مجموعة برد نتعاطاها كل كام سنة بنفس الطريقة و بنفس العبوة مع تغيير الأسماء. المرة الوحيدة التي نفذوا فيها كلام آدم سميث كانت في مشكلة الفياجرا، و هي لمن لا يعرفها (حبة زرقاء تمنع الحسد) في هذه المشكلة بالذات، تم التخطيط و أزيلت العوائق، و تم الربط بمهارة فائقة بين آليات السوق و أرجل السرير.

***

سوق يا أسطى

كثيرون يحمِّلون عم السيد العربجي مسئولية الاحتلال الإنجليزي لمصر. لأن عم "السيد العجان" السكندري كان هو عربجي الحنطور الذي حمل المالطي إلى شارع السبع بنات، و اختلف معه على الثمن فقامت مذبحة الإسكندرية بين المصريين و الأجانب؛ و التي اتخذتها إنجلترا حجة لاحتلال مصر. و من يومها أصبحنا في كل مصيبة نترك الحصان و نتعلق في عم "السيد العجان". أحياناً يكون عم السيد طفاية على عبّارة غرقت، أو جزرة في قطار احترق، أو موظفاً في بنك نهبوه، أو صولاً في نكسة، أو فراشاً في صفر مونديال، أو بائعة ليمون في تضخم، أو غفيراً في أرض سرقوها، أو امراة في مبيدات مسرطنة، أو جريدة في استثمار طفشوه، أو عسكرياً في انتخابات زوَّروها، أو بواباً في عمارة انهارت. عم السيد العجان في تاريخنا هو الحاضر الغائب؛ فالسيد الرئيس و السيد رئيس الوزراء و السيد رئيس مجلس الشعب و كل السادة لا يخطِّئون ألا سيداً واحداً هو السيد العجان. في مصر لا يوجد حساب إلا المقرر على خامسة ابتدائي؛ لأن الحساب على صاحب الحنطور و قائد العربة، ثم على الحصان أن يصدق ذلك. و إذا كان حائط المبكى هو بقايا هيكل سليمان؛ فإن عم السيد العجان هو حائط مبكانا و بقايا تاريخنا.

***

المستحيلات الثلاثة

منذ شهر انتخبوا سبع عجائب جديدة للدنيا بدلاً من القديمة ليست بينها أهرامات الجيزة. و أيضاً الثلاثة مستحيلات القديمة الغول و العنقاء و الخل الوفي تغيرت؛ و أصبحت المستحيلات الثلاثة الجديدة هي "البلبلة" و "الازدراء" و "الأفكار الهدامة" و كلها أشياء وهمية هلامية غامضة تسمع عنها و لا تراها. ثم فجأة تظهر لك في قاعة إحدى محاكم أمن الدولة مثل ثلاثي أضواء المسرح لتقول أنا البلبلة و أنا الازدراء و أنا الأفكار الهدامة، أو مثل الطعم الثلاثي أو المبيدات ذات قوة القتل الثلاثية ليس هناك تعريف محدد في قاموس أو ناموس لهذه الكلمات المطاطة التي تخرب بها الحكومة بيوت الناس. فلم نسمع عن كيلو بلبلة أو مترين ازدراء و لم نسمع عن راكب في مطار ضبطوا معه شنطة أفكار هدامة. و تتعمد النظم المستبدة وضع هذه الكلمات المطاطة و غيرها حتى تفسرها على هواها. فيقول النص مثلاً "تقوم الدولة" دون أن يوضح هل تقوم بدري؟ أم تقوم و تقعد؟ أما أخطر العبارات التي تلغي الدستور فعلاً فهي عبارة "في حدود القانون"؛ إذ إنه من المعروف أن شيئين لا يعرف أحد حدودهما، و هما دولة إسرائيل و دولة القانون. الخلاصة أننا و دون بلبلة أو ازدراء محبوسون بين كلمتين محددتين فقط نعرف لهما معنى هما (تولى و توفى).

***

انتبه!

انتبه، الحكومة لا تعادي الإخوان لأنهم يخلطون الدين بالسياسة و يعادون الحريات و المرأة و الأقباط؛ بل لأنهم الأكثر تنظيماً و نفوذاً و قوة و ثروة. انتبه، الإخوان لا يعارضون الحكومة بسبب الفساد و الاستبداد و الرأسمالية المتوحشة –فهما على نفس الأرضية– بل بسبب تعطيل نشاطاتها و مضايقة أهضائها و التنافس على مقاعد النقابات و المجالس. و حديث الإخوان عن الديمقراطية أكثر سخرية من حديث الحكومة عن الشفافية. و تستعير الحكومة كلام الإخوان في الدين و يستعير الإخوان كلام الحكومة في الديمقراطية. ناس تبيع لنا الدنيا و مصانعها و ناس تبيع لنا الآخرة و جناتها، و إذا كان الحاج أحمد مزراط فإن الحاج محمد أزرط منه. و لك أن تتخيل أن "ثلاثي النغم" رحلوا "صفوت الشريف" و "فتحي سرور" و "كمال الشاذلي" ليحل محلهم ثلاثي الطرب "عصام العريان" و "مجدي حبيب" و "خيري الشاطر". وقتها سوف يستمر اللحن لكن بكلمات مختلفة. "الاعتقال" يصبح "تعزيز" و "الطوارئ" تتحول إلى "استنفار" و "التربح" يصبح "فيئاً" و "الفساد" "مرابحة" و "التوريث" يصبح "استخلاف" و الرمي من الشبابيك يتحول إلى الذبح. و لن يحضر "عباس" للقاء الرئيس مبارك بل يجيئ "هنية" للقاء الخليفة المهدي.. و تظل الحال هي الحال "أخوك عند أبوك" لأن الطينة من الطينة و اللتة من العجينة. المثقف الحقيقي الذي يدافع عن قيم الحق و الخير و الجمال عندما يقاتل الذئب من أجل الثعبان يكون قد انتقل من عالم السياسة إلى عالم الحيوان.

***

البحث عن ختم ضائع

كان جسد الرسول (عليه الصلاة و السلام) مسجي في بيته –لم يدفن بعد– بينما المسلمون –في سقيفة بني ساعدة– يتصارعون على الخلافة، و هو تقليد لم يتركه المسلمون أبداً عبر الزمان. في إحدى ليالي سبتمبر عام ١٩٧٠، كنت في السودان أستمع إلى بيان المرحوم أنور السادات يوم وفاة عبد الناصر "فقدت مصر و فقد العالم العربي و فقدت الإنسانية.. إلخ" و كان البيان يُتلى على طريقة فلان فقد الختم و جاري عمل ختم جديد. و فعلاً كنا في سفارة مصر نتلقى عزاء الشعب السوداني الحزين، و عرفنا فيما بعد أن سيدات المجتمع في ذلك الوقت، و قبل دفن عبد الناصر كن يهنئن السيدة الفاضلة جيهان السادات بحكم مصر. و هي اللقطة التي تكررت فيما بعد منها شخصياً في مستشفى المعادي؛ حيث كان جثمان المرحوم أنور السادات مسجي و هي تقول للنائب حسني مبارك: "مبروك عليك حكم مصر". أيها السيدات و السادة أنا و هو و هي و حضرتك و الرجل الذي باع لك هذه الجريدة و سواق الأتوبيس و أحمد شوبير و رئيس لجنة الحكام الرئيسية؛ نعلم تماماً كيف يأتي حكّام هذه البلاد، فلماذا الفضول و التطفل و تعب القلب و المشاركة في البحث عن ختم ضائع لا نراه أبداً إلا في مرآة الحلاق بعد أن ينتهي تماماً من توضيب القفا.

***

البخور و اتفاقية كيوتو

أنا لا أؤمن بالعفاريت، و لا حتى عفاريت الأسفلت، لكنني أعتقد أن العفريت أصغر من الأتوبيس لأن الناس تركب الأتوبيس، بينما العفريت يركب الناس، و العفاريت لا تجد مقاساها إلا عندنا؛ لذلك هي تتزاحم في مول العالم العربي. في بلادنا فقط يركب العفريت مواطناً و يركب حزب نقابة و تركب جماعة جريدة و تركب سلطة سلطة أخرى، و يركب شخص لجنة و تركب لجنة حزباً و يركب حزب بلداً. فنحن نعيش في حالة ركوب عام لا يصلح معها كودية و لا زار. رغم أن مستخرجي العفاريت في بلادنا أكثر من مستخرجي البترول، و رغم أن اتفاقية "كيوتو" للانبعاث الحراري تخصنا؛ إذ إن كميات البخور التي نطلقها تفوق عوادم مصانع الاتحاد الأوروبي. و حالة "الركوب" أخطر من حالة "الركود" لأنها جعلت نظامنا السياسي بلا ملامح، فلا نعرف من المواطن و من الأتوبيس؟ و من المؤسسة و من العفريت؟ زادت الأشباح التي تدير مؤسسات الدولة فمنها من يركب الصحافة، و من يركب الحزب، و من يركب الحكومة، و من يركب الموجة على طريقة عفريت لكل مواطن. المرعب أن العفاريت لا ترتع إلا في الخرابات، ربنا يستر.

***

ديمقراطية حجرة الفئران

بدأت الحكومة في تطبيق تجربة المدارس الديمقراطية في محافظة الجيزة لزرع الديمقراطية في الأراضي المستصلحة و توزيعها على شباب الخريجين. في هذه المدارس سوف يكون مشرف الفصل بالانتخاب الحر المباشر بين أكثر من مرشح، أما الفراش و الناظر و المدرسون و الإداريون و المنهج الدراسي، و جدول الحصص و مواعيد الامتحانات، و نوع الملابس و ألوانها فهذه فقط بالتعيين. و الدولة التي تفعل ذلك هي نفس الدولة التي حاربت مدارس الديمقراطية الحقيقية؛ و هي الأحزاب و هزمت بعضها بالقاضية، و البعض الآخر بالنقط لتفوز بدوري المنازل و تحولها إلى مدارس ديمقراطية و مدارس غير ديمقراطية. دي فوري و تشيل البقع و دي بالتقسيط و ماتشيلش حاجة، و تلاحظ أن قميص التلميذ "زي ما هوه" مهما غسلته أمه. باعت الحكومة محلات الصاغة (الأحزاب) لتشتري دبلة. إذ كيف يكون التلميذ ديمقراطياً في المدرسة و القهر يحاصره و يحاصر أباه في الشارع و البيت و المصنع و النقابة و الحزب؟ هل المدرسة هي فقط مدرسة أبي سفيان من يدخلها فهو ديمقراطي؟ و سوف يتم الربط بين مجلات الحائط و حجرة الفئران حتى يكتب التلاميذ عن إصلاح الحنفيات لا عن إصلاح التعليم، و عن دورات المياه لا دورات الحكم. و إذا كانت تجربة المدارس الديمقراطية حقيقية و مفيدة فأول من يستحق الجلوس على التخت فيها هو الحكومة و أعضاء الحزب الوطني و أعضاء المحظورة، وقتها قد ينصلح حال البلد و تفسد حال المدارس. سألوا حاكماً عربياً "هل أنت ديمقراطي"؟ فنفى ذلك بشدة و قال: "أبداً أبداً.. أنا مش ديمقراطي أنا جمهوري زي بوش".

***

رغيف الدكتور نظيف

عاصرت ملكاً و أربعة رؤساء جمهورية و نصف دستة مرشدين لجماعة الإخوان المسلمين و تسعة رؤساء أمريكان و حوالي عشرين ألف وزارة، و كلها كانت تتباهى بـــ "نيشان" مستدير تضعه على عروة الجاكتة اسمه "رغيف العيش" و قد شاركت المرأة في مطلع القرن العشرين في ثورة ١٩١٩، ثم تطورت، و حققت مكاسب في القرن الواحد و العشرين و شاركت بقوة في طوابير الخبز. و قد تعقدت المشكلة و استطالت الطوابير منذ قرر السيد الئيس التدخل بنفسه لحل مشكلة الخبز. و أنا أرجو مخلصاً من الدكتور نظيف أن يعطي أحد السعاه (ساعي و ليس وكيل وزارة) نصف جنيه و يطلب منه إحضار عشرة أرغفة، ثم ينسى هذا الساعي تماماً أو يمنحه تفرغاً لمأموريته لمدة عام، و أنا أؤكد لسيادته أنه إذا لم يستغل صفته فسوف يعود إليه بالخبز بعد انتهاء ولاية الرئيس مبارك عام ٢٠١١. على الورق تنتج مصر من أرغفة الخبز أكثر مما تنتجه السعودية من براميل النفط، و أكثر مما تنتجه بوليفيا من الموز، لكن أين يذهب هذا المساء؟ هل تستورد مصر القمح لتعيد تصنيعه و تصديره أم يتم سحب الخبز من السوق ليحلف عليه الوزراء الجدد؟ الموضوع خطير و يحتاج إلى حلول جذرية كأن نحوِّل الرغيف من مستدير إلى مربع، أو نكلف ساعي الدكتور نظيف بشراء الخبز للشعب، أو تتخلى الدولة عن حبس الصحفيين و تتفرغ مؤقتاً لحبس الفرانين.

***

الاثنين الماضي و الاثنين القادم

قارن بيت الاثنين. الاثنين الماضي و الاثنين القادم –في أوائل نوفمبر– في الاثنين الماضي انتهى المؤتمر العام للحزب الشيوعي الحاكم في الصين الذي انعقد لمدة ثلاثة أيام من السبت إلى الاثنين، و سوف ينعقد المؤتمر العام للحزب الحاكم في مصر لمدة ثلاثة أيام من السبت إلى الاثنين؛ و هذا هو الشيء الوحيد المشترك بين المؤتمرين. ففي اليوم التالي لانتهاء مؤتمر الصين –الثلاثاء– أرسلت صاروخاً و مركبة فضاء إلى القمر في رسالة واضحة للعالم بأن هذا ما قدمه الحزب الحاكم للصين. فما هي رسالة و صاروخ و مركبة الثلاثاء في اليوم التالي لانتهاء مؤتمر الحزب الحاكم عندنا؟ أعتقد أن الصاروخ هو السيد جمال مبارك و المركبة هي مصر و الرسالة هي "التوريث"، و هذا هو الفرق بين مؤتمر و مؤتمر و حزب و حزب، و هو الفرق بين الأرض و القمر؛ إذ وعدت الصين أنها سترسل مركبة مأهولة بالبشر عام ٢٠٢٠، و هو نفس العام الذي وعد فيه الحزب الوطني بالانتهاء من مشكلة المجاري في مصر، لاحظ المراقبون خلو مؤتمر الحزب الشيوعي الصيني من محتكري الحديد و الإسمنت و المواد التموينية؛ فقد استفادت الصين من الفكر الرأسمالي في تطوير تجربتها الاشتراكية، و استفادت الرأسمالية من الفكر الاشتراكي في تطوير نفسها، و استفاد الحزب الوطني من بيع الشركات. في أول زيارة للسيد حسني مبارك للصين، و كان لا يزال نائباً للرئيس، نشرت جريدة الأخبار في الصفحة الأولى حكمة اليوم "اطلبوا العلم و لو في الصين" بل إن رئيس تحريرها ألّف وقتها كتاباً عن الصين بعنوان "شيوعيون في كل مكان". و مع الأسف لم نحضر من الصين علماً؛ بل فيلماً بعنوان (فول الصين لعظيم) و بعد هذه السنوات تغير رئيس التحرير، و تغيرت الصين، و تغيرت الدنيا، و تغير الكتّاب إلى "حراميون في كل مكان". كل شيء في العالم تغير إلا السيد الرئيس. و إذا كانت الصين ترسل مواطنيها إلى القمر لاستكشافه فنحن أيضاً نرسل مواطنينا إلى قاع البحر لاستكشافه و البادي أظلم. (و الله ما أظلم غير مستقبلنا).

***

الشاي و البيرة و أشياء أخرى

الشجرة من البذرة و معظم النار من مستصغر الشجر، إذ من حفل شاي "بوسطن" الشهير بدأت حرب الاستقلال الأمريكية التي أخرجت للعالم أمريكا الحالية. و من حادث حانة البيرة الشهير في "برلين" بدأ استيلاء "هتلر" على الحكم في ألمانيا، و هو الحادث الذي غيَّر خريطة أوروبا و العالم. و من مقال في صحيفة، كتبه صحفي نمساوي هو "هر تزل"، بدأ تفعيل المشروع الصهيوني، ثم إنشاء دولة إسرائيل، و ما أحدثته في منطقة الشرق الأوسط. لقد تعاملنا مع مشكلة "دارفور" كما تعاملنا مع ثغرة "الدفرسوار"؛ قلنا وقتها أن ثلاث دبابات إسرائيلية تسللت إلى الضفة الغربية للقناة، و أنهم محاصرون، و تركنا التصرف للقائد المحلي حتى تحولت الثغرة إلى كرش أضاع بهجة النصر؛ و دفعنا ثمنه غالياً في مفاوضات فك الاشتباك. و في دارفور قلنا إنها مشكلة "داخلية" تخص السودان، و بعد سنوات قلنا إنها مشكلة "إنسانية" تستحق منا المساعدات الغذائية، و بعد سنوات أخرى –عندما تنبهنا إلى أنها "مصرية" أيضاً– كانت قد تحولت إلى مشكلة "دولية". هذا منهج ثابت لحكومة تهمل حلاً يحتاج إلى ملايين و تنتظر حتى يحتاج إلى مليارات، و منهج معارضة تطالب الرئيس بدورتين فقط بعد أن أمضى في الحكم خمس دورات. و منهج صديقي الذي غاب في الخليج أحد عشر عاماً أنجبت زوجته في غيابه أحد عشر طفلاً، و عندما عاد و رآهم لم يطلقها. ثم طلقها عندما رآها تدخن، لأنه كان يعاني من حساسية في صدره.

***

قصر الزعفران

اضبط، هذه لقطة تاريخية لا يمكن أن تفوتك. أمام قصر "الزعفران" و هو جزء من جامعة عين شمس الآن، تجمّع البلطجية و اللومانجية و الإخوانجية و الأفندية و الطلبة و قوات الأمن، و كل ممثلي قوى الشعب العامل؛ حيث دارت معركة عين شمس "الثانية". من قبل كان قصر "الزعفران" ملكاً للملك فؤاد والد الملك فاروق، و فيه تزوج زوجته الأولى شويكار، و استغل توكيلها العام في نهب أموالها، و كان شقيقها "سيف الدين" يرى أن فؤاد من فرع إسماعيل الذي نهب السلطة من فرع إبراهيم الذي تنتمي شويكار إليه، و يريد الآن أن ينهب ثروقم، و بعد مشاجرات و مشاحنات أطلق "سيف الدين" النار على فؤاد في الكلوب الخديوي، و استقر "سيف الدين" في السجن، ثم في مستشفى للمجانين و نهب فؤاد ثروته كما فعل مع شويكار؛ و هذه معركة عين شمس "الأولى". الآن أمامك صورتان، صورة خارجية جديدة لقصر الزعفران (مشاحنات الطلبة) و صورة تاريخية قديمة (مشاحنات فؤاد) حمض الصورتين و تأملهما و احكم. و تذكر أن الذي يحكم مصر الآن هو السيد الرئيس محمد حسني مبارك الذي ولد عام ١٩٢٨، أيام الملك فؤاد، و أنه في نفس العام ١٩٢٨، ولدت جماعة الإخوان المسلمين أيام الملك فؤاد أيضاً، و أن البلطجية و اللومانجية و الأفندية و الطلبة موجودون من أيام فؤاد حتى الآن و كذلك قصر الزعفران. أي أن شيئاً لم يتغير منذ تزوج أحمد فؤاد من شويكار سوى أن أحمد حلمي اتجوز عايدة و أحمد عز اتجوز شاهيناز.

***

نظام ظل و ظل نظام

شاهدت الفيلم الأجنبي "امرأة الظل" الذي مصَّروه لشادية بعنوان "أغلى من حياتي" و مثل "امرأة الظل" رأيت أيضاً "خيال الظل" و سمعت عن "نباتات الظل" و "حكومة الظل" لكنني لم أسمع أو أرَ أو أتخيل أن يكون هناك "نظام ظل". نظام كامل متكامل يتخلق في الظل. "نظام طل" قادم من ظل نظام قائم. برئيسه و قادته و وزرائه يتشكل ليحل محل النظام القائم فور اختفائه و يركب فوق البيروقراطية القائمة و التكنوقراط الموالي لأي نظام. نظام اختار حتى معارضيه و يدون من الآن بياناهم من أول الاسم الثلاثي حتى مقاسات الأحذية و هذه أعجوبة ننفرد بها. تحولنا إلى جهاز متعدد الأنظمة إذا تعطل نظام اشتغل آخر أوتوماتيكياً دون أن يكون لصاحب الجهاز رأي أو قرار؛ فكلاهما مفروض، و كتالوج التشغيل لا نملكه و كلمة السر لا نعرفها. صحفيو و كتَّاب و مثقفون و أساتذة جامعات عرفوا اتجاه الريح و قدموا من الآن أوراق اعتمادهم لنظام الظل. و يعملون مع النظام القائم بعقد مؤقت لحين التثبيت مع نظام الظل. و بسمُّون أنفسهم جيل ما بعد أكتوبر (جيل نوفمبر) و هو موعد عقد المؤتمر العام (للجهاز) الحاكم. فلا تتعجب إذا سألك صديق: أنت نظامك إيه؟

***

خطَّاط و علبة بوية

الغريب أن برنامج السيد الرئيس الانتخابي الذي تحدث فيه عن عدد المدارس التي سيتم بناؤها بدقة و بالفصل و عدد التختت، و عدد المصانع بدقة و بالعنبر و عدد العمال، و مساحة الأراضي التي سيتم استصلاحها بالسنتيمتر المربع، و عدد الكباري و الملاعب و الحدائق و النافورات. هذا البرنامج الدقيق لم يذكر شيئاً عن محطات نووية، ثم فجأة و بدون سابق إنذار تم الخروج عن النص و توارى "البرنامج الانتخابي" ليحل محله "البرنامج النووي" فلماذا أغفل البرنامج الحديث عن أمر خطير كهذا؟ و هل ظهرت فجأة أزمة الطاقة في مصر؟ و هل الموضوع أصلاً يتعلق باستهلاك طاقة أم باستهلاك محلي و موقف دولي؟ أزمة الطاقة في مصر معروفة و قديمة منذ التسعينات عندما انهار الاتحاد السوفيتي، و أخذت إسرائيل العلماء و أخذنا نحن العوالم؛ فتضاعفت قدرة إسرائيل النووية و ضاعفنا نحن عدد الكباريهات. اتساقاً مع الوضع المؤلم و غياب الموارد و الكوادر و الإدارة، من الممكن إضافة كلمة "النووية" فنحصل فوراً على أربع محطات نووية مجاناً. محطة محمد نجيب النووية و محطة ناصر النووية و محطة السادات النووية و محطة مبارك النووية؛ و كلها في مترو الأنفاق تحت الأرض، و لا يمكن لأحد أن يضربها، و الموضوع لن يكلفنا شيئاً سوى خطَّاط و علبة "بوية".

***

ناسا.. ناسا

في مصر لا تستطيع أن تفرق بين ما هو حكومي و ما هو حزبي إلا بالكرافتات؛ ففي نفس اللحظة التي كان أعضاء الحزب الوطني يرتدون الكرافتات الملونة لانتخاب رئيس جديد قديم للحزب؛ كان الملايين من المصريين عراة يصارعون الأمواج و يموتون في عرض البحر غرقاً في رحلة البحث عن لقمة العيش في بلد لا يحكمه الحزب الوطني، و لا يفوز برئاسته في اقتراح علني و اقتراع سري السيد حسني مبارك. كان على الأعضاء أن يفتتحوا المؤتمر بالوقوف دقيقة حداد أو على الأقل أن يرتدوا الكرافتات السوداء؛ فهذا الحزب الذي نشأ على أنقاض حزب مصر يعيش الآن على أنقاض مصر نفسها. عندما حمل (أبوللو) "آرمسترونج" و هبط على سطح القمر كان ستمائة إنسان يشاهدون هذه اللحظة التاريخية، و ربحت وكالة "ناسا" التي تشرف على هذه الرحلات ملايين الدولارات من بيع حق البث لمحطات التليفزيون. و بعد ست سنوات فقط كان أبوللو (١٧) يحمل إنساناً إلى القمر، بينما وكالة "ناسا" تستعطف و ترجو و تتذلل لمحطات التليفزيون؛ بل إنها اضطرت أن تدفع هي للتليفزيونات حتى توافق على البث لأن الناس بعد ست سنوات فقط كانوا قد زهقوا و طهقوا من رؤية بشر يهبطون على سطح القمر. أما نحن فكل ست سنوات يهبط نفس الشخص على سطح السلطة دون أن نكل أو نمل أو نزهق أو نطهق، و دون أن يرفض التليفزيون أن يبث و يذيع و يسجل هذه اللحظة التاريخية التي يواصل فيها الإنسان المصري الهبوط على سطح الفقر أو في قاع البحر.

***

مباحث أمن الجن

الثلاثاء في الثالثة جمعت "دريم تو" مجموعة من الفتيات و الشبان ليحدثهم شيخ مودرن عن الفرق بين السحر المفيد و السحر الضار، و شرح الرجل مشكوراً أن هناك أنواعاً من الجن منهم المؤمن و الكافر و اليميني و اليساري. و الحقيقة أنني فرحت بوجود جن ينتمي إلى اليسار حتى يقف ضد بيع "الفانوس السحري" إلى جن أجنبي، و يبدو أن هذا الجن مختفٍ و لا نراه خوفاً من مباحث أمن الجن التي جعلته يعمل تحت الأرض. ما لا يعرفه إلا السحرة المتخصصون أن "دريم تو" تابعة للأستاذ أحمد بهجت، و أن "نورماندي تو" تابعة للأستاذ أحمد رمزي، و أن "مصر تو" تابعة للأستاذ أحمد نظيف. أما قناة التنوير فهي تجمع الأطفال حول ممثل معتزل لأن الفن حرام و طول النهار هات يا تنوير؛ و يبدو أن جرعة التنوير زادت فجعلت أوائل الثانوية العامة يرفضون السفر هذا العام في رحلة المكافأة دون محرم. هناك قنوات تتبع الدول و قنوات تتبع الأفراد و قنوات تتبع الأحزاب مثل قناة "المنار" التابعة لحزب الله و الفضائية المصرية التابعة للحزب الوطني الديمقراطي؛ و معظمها لها محطات تقوية في "قندهار" حتى إن إحدى القنوات كلما فتحتها وجدت شيخاً أشعث أغبر لا يتغير و لا يغيِّر ملابسه يصرخ "اقتلوهم.. اقتلوهم"، و أخيراً. أخيراً جداً استجابت هذه القناة للظروف الدولية و تغيرت، و أصبح هذا الشيخ يغير النداء و يصرخ "اذبحوهم.. اذبحوهم". الله ينور.

***

سمعت آخر فتوة!

من أول محكمة العدل الدولية حتى المحاكم الدستورية العليا في بلاد العالم لها دور في الفتوة و أقسام الإفتاء؛ لكنها لا تتعامل في الفتوة مع أفراد بل تضع ضوابط للتأكد أولاً: من جدية طلب الفتوة، و ثانياً: أنها مطلوبة للاستخدام كأن تكون القضية معروضة أمام محكمة الموضوع أو يكون طلب الفتوى قد ورد إليها من مؤسسة رسمية مع توضيح الأسباب. و هو ما نرجوه الآن و فوراً لدار الإفتاء بأن توضع ضوابط و آليات تمنع تعامل الأفراد معها حفاظاً على مكانتها و قدسيتها. بعض ضعاف النفوس على استعداد لدفع رسم الفتوى الضئيل لطلب الفتوى في أمور مضحكة تورط دار الإفتاء و الدار –بحسن نية و تحقيقاً لمصالح الناس– ترد مفترضة حسن النية من الجميع. منذ سنوات –و هذه قصة شهيرة– دفع شباب إحدى المحافظات الساحلية تأمين الترشيح في انتخابات مجلس الشعب لبهلول بغرض الضحك و الاستهزاء، و ألبسوه طرطوراً ليرقص في مؤتمراته الانتخابية، و يعرض في برنامجه ردم القناة و إباحة الحشيش و رفع سن الزواج إلى خمسين سنة للفتاة، و ستين سنة للرجل؛ و صار الموضوع نكتة ليس على البهلول، و لكن على اللي بالي بالك؛ و هو ما لا نرضاه على هيئة عزيزة و كريمة على نفوسنا، و إذا لم تتوفر لها هذه الضوابط فيكفيها جداً أن تراقب الهلال، و تقول لنا كل سنة مرة "الليلة عيد".

***

امرأة على المائدة

غريب أن يدفع الشعب مرتبات من يعذبه، و الأغرب أن يدفع مرتبات من ينافق حكامه، و لكل إنسان درجة انصهار ترتفع و تنخفض من شخص لآخر؛ فهناك من يبيع بسيجارة و من يبيع بعمارة، و قليلون من الأحجار تعرف الاحتراق و لا تعرف الانصهار. و مع قلة الأحجار و ارتفاع الأسعار لم يعد هناك من يقبل أن يكتب مقالة في نفاق مسئول بعشرة جنيهات. وقتها سوف يدَّعي الشرف.

في إحدى الحفلات جلست امرأة على المائدة بجوار جورج برنارد شو، فسألها بهدوء: سيدتي هل تقبلي أن تقضي معي ليلة بمليون جنيه استرايني؟ فابتسمت المرأة و قالت: طبعاً بكل سرور. فعاد و سألها: هل من الممكن أن نخفض المبلغ لعشرة جنيهات فقط؟ فغضبت المرأة و صرخت في وجهه قائلة: من تظنني أكون؟ فقال لها شو بهدوء: سيدتي، نحن عرفنا من تكونين، نحن فقط نختلف على الأجر. و لم يذكر التاريخ اسم المرأة التي جلست على مائدة جورج برنارد شو، لكن ذكر أسماء كثيرة جلست على مائدة الحكام، و أخشى لو خفضنا المليون التي يحصل عليها بعض كتَّاب و مسئولي الصحف أن يغادروا مائدة الحكومة و يتجهوا إلى المعارضة، و بعد أن كانوا يتحدثون عن الشرف و الأخلاق و القيم في صحف الحكومة سوف يتحدثون عن النقود و المال و الاقتصاد في صحف المعارضة، و قد سألوا (جورج برنارد شو) في ليلة أخرى: لماذا يتحدث خصومك كثيراً عن الشرف و الأخلاق؛ بينما تتحدث أنت عن النقود و المال؟ فقال: يبدو أن كلينا يتحدث عما ينقصه.

***

إذاعة "رحومة حنيش"

أرسلت إحدى المجلات القومية رئيس القسم الرياضي بها منذ سنوات لتغطية دورة الألعاب الأوروبية في مدينة "مونتريال" بكندا، فلم يرسل الرجل من هناك أي تقرير، و اكتفى بعد عودته بأن كتب تقريراً مختصراً من سطر واحد يقول فيه " مونتريال.. ما أجملك يا مونتريال.. سلام مربع لمونتريال". مما حدا بأستاذنا المرحوم "نجيب المستكاوي" و الذي كان ينشر صفحة كاملة يومية عن هذه الدورة في الأهرام أن يقول "حرام أن يقضي صحفي أكثر من شهر في فنادق كندا، علاوة على الإقامة و تذاكر الطائرات على حساب مجلته، ثم يعود ليكتب سلام مربع لمونتريال". لكن "مونتريال" كانت بداية "التقارير المختصرة جداً" التي يمكن أن تستفيد منها الصحف. فنحن مقبلون على تغيير وزاري و حركة محافظين (جدد) و كل مسئول يصاب بحساسية من النقد في هذه الفترة الحرجة التي تهدد الكرسي الذي يجلس عليه. و مفتاح الحل موجود في التقارير المختصرة؛ ففي صفحة المحافظات مثلاً على الصحف أن تبدأ من الشمال إلى الجنوب "إسكندرية.. ما أجملك يا إسكندرية.. سلام مربع للإسكندرية". أو من الجنوب للشمال "أسوان.. ما أجملك يا أسوان.. سلام مربع لأسوان". و هكذا مع الوزارات بنظام الدور الداير. أما حق المواطن في المعرفة فلا أحد يدقق بين المعرفة و (المغرفة) و الميكروباصات على قفا من يشيل و يستطيع المواطن أن يتجه بنفسه إلى المحافظة التي يريد أن يعرف أخبارها و اللي يسأل ميتوهش. أو الاعتماد على إذاعة "رحومة" التي رأيتها في "مطروح" منذ ربع قرن، و كانت عبارة عن ميكروفونين معلقين بجوار سيدي "العوام" يذيع أحدهما الأخبار بأن هناك طفلاً تائهاً يرتدي بلوفراً أحمر، بينما يؤكد الميكروفون الآخر خلو المحافظة تماماً من البلوفرات الحمراء. مع تحيات أخوكم رحومة حنيش.

***

تاريخ مدام "كولين"

كانت الكتب المدرسية تقول؛ أن جمال عبد الناصر هو قائد الثورة. و بعد أن مات كانت نفس الكتب تتحدث عن الثورة و تقول "هذه الثورة التي أعلن بيانها الأول الرئيس القائد أنور السادات" و لأن الدنيا داين تدان، و بالكيل الذي به تكيلون يكال لكم، فقد كان "أنور السادات" هو قائد حرب أكتوبر في كتب التاريخ المدرسية، و بعد أن مات كانت نفس الكتب تتحدث عن حرب أكتوبر و تقول "هذه الحرب الذي قام بضربتها الأولى الرئيس القائد حسني مبارك". و للعلم فإن مدام "كولين" لمن لا يعرفها هي أشهر مصممة أزياء تاريخية في العالم، و زبائنها هم مخرجون و منتجون عالميون يقولون لها "عثمانلي" مثلاً، ثم يحضرون بعد أسبوع لاستلام ملابس الانكشارية و الكنفشارية، و هكذا و مدام "كولين" دائماً تحت الطلب جاهز و تفصيل. مصري فرعوني. فرنسي بربوني أو صيني قيصري. و يبدو أن مدام "كولين" تشعر الآن بالفراغ لقلة الأفلام التاريخية؛ فتحولت من تفصيل الملابس التاريخية إلى تفصيل الوقائع التاريخية، و تغير زبائنها من مخرجين و منتجين إلى صحفيين و مذيعين؛ و هي الآن مشغولة بإعادة تفصيل التاريخ المصري على شفاه المذيعين و أقلام الصحفيين. أصبح تدوين التاريخ في بلادنا فوضى فكل من يشتري نتيجة حائط توضح التواريخ يصبح مؤرخاً، و كل من يشتري مروحة يصبح أخصائياً في طب المناطق الحارة. من أفواه المذيعين "نحن انتصرنا في حرب ٤٨" و من أقلام الصحفيين "خيرت الشاطر هو قائد مظاهرات الطلبة عام ٦٨" (أقسم بالله أنني درست في ثلاثة معاهد عسكرية عليا أننا انهزمنا في حرب ٤٨، و أقسم بالله أنني كنت أثناء هذه المظاهرات أقف إلى جوار قائدها عاطف الشاطر و لم نسمع عن خيرت هذا إلا في هذه الأيام السوداء). أرجوكم امنعوا مدام "كولين" من دخول مصر.

***

متعوِّدة دايماً

عندما سرق اللصوص قطار بريد لندن–جلاسجو، و فيه مليون جنيه؛ صدر مائة كتاب و شاهدنا دستة أفلام عن الحادث، و ظلت الصحف لمدة عام تحلل الواقعة. في مصر أصبح خبر سرقة مليار جنيه لايستحق أكثر من عشرة أسطر بواقع مائة مليون جنيه للسطر الواحد لأن مصر (متعودة دايماً).

و على العكس ففي مصر –حصرياً– يقام احتفال ضخم يحضره كبار المسئولين، و يذاع على الهواء مباشرة؛ للاحتفال بأمين شرطة عثر على شنطة في المطار ثم سلمها لصاحبها. و في مصر –حصرياً– تتسابق برامج التليفزيون لاستضافة مهندس لأنه رفض رشوة من مقاول. و يكتب صحفي نصف صفحة يشكر فيها إدارة المرور لأنها جددت له الرخصة. و قريباً سوف يعلن المتحدث الرسمي عن اكتشاف مدرس في إحدى المدارس يشرح الدرس أو طبيب يكشف على مرضاه. منذ شهور استضاف برنامج شهير و جماهيري في القناة الثانية "كبابجي" مخلصاً لا يستعمل لحم الكلاب و لا الحمير، و راح الرجل الطيب يؤكد للمذيع أنه يطرد أي كلب يمر من أمام المحل، و أنه يقاطع لحم الحمير؛ بينما المذيع يثني عليه و يشكره و يطالبه بالاستمرار في هذا رغم أي مغريات و نحن معه في الطريق. و إذا كانت القاعدة في أفغانستان فإن الاستثناء في مصر؛ فهي التي تشكر المحامي إذا ترافع، و المدرس إذا شرح، و الطبيب إذا كشف، و التلميذ إذا صحا من النوم، مع أنه لا شكر على واجب. في ظل هذا المناخ يصبح من الطبيعي أن يحمد الناس السيد الرئيس أنه قبل أن يحكمهم، و أن يشكروا السيد جمال مبارك أنه قبل أن يرثهم، و أن يثنوا على السيد أحمد عز أنه تواضع و احتكرهم، و لن أتعجب إذاقام بعض الناس بأنفسهم بسرقة البنوك و تسليم أموالها لرجال الأعمال مع الشكر و الامتنان.

***

يا ساكني البدروم

في الباب الجانبي لمبنى التليفزيون بجوار إدارة البرامج المتخصصة، يوجد بدروم كبير تحت الأرض؛ فيه مجموعة أشخاص يستطيع الداخل إلى المبنى أن يراهم من خلال شباك حديدي، ينادون المارة، و أحياناً يصرخون أو يطلبون من المارة شراء شيء، أو يحملوهم خطابات إلى ذويهم، و أحياناً يسألوهم عن تاريخ اليوم و أحوال الدنيا، و المارة قد يستجيبون و يتبادلون معهم السجائر، و قد لا يستجيبون و يتبادلون معهم الشتائم. و في فترة الليل يتعالى صراخهم و يختلط بالضحكات. هذا البدروم العجيب هو مخزن عهدة التليفزيون، و يضم دستة أشخاص من تخصصات مختلفة وافقت عليهم الجهات الأمنية. محلل إستراتيجي و عالم نفس، و متخصص جماعات، و سفير سابق، و لواء سابق، و طبيب و ملحن، و لاعب كرة، و أساتذة فقه، و رجل أعمال، و شيخ أزهري، و عضو مجلس، و هؤلاء يتم تدويرهم على البرامج المختلفة بواسطة الوزير، و لا يمكن التفريط فيهم أو تغييرهم إلا بواسطة الأمن. و يستطيع أحدهم أن يحل محل الآخر؛ فاللاعب يفتي، و الشيخ يحلل الأحداث، و السفير يعلق على المباراة، و الملحن يعمل مداخلة، و أحياناً يعمل عملية قلب مفتوح، و عضو المجلس يغني، و أساتذة الفقه تتحدث عن الطبيخ. المهم أن يغطي التليفزيون نفسه في إطار العهدة المسموح بها، ثم يعيدهم إلى البدروم المسحور ليشاغبوا المارة؛ فهم حاصلون على منحة تفرغ، و ليس وراءهم طفل يبكي أو بنت تريد أن تتجهز، أو شاب يدرس في الجامعة، أو أحد يسأل عنهم؛ فهم رهبان التليفزيون وهبوا حياتهم للاستضافة فيه، و أنكروا ذواتهم، و هجروا أسرهم من أجل ذلك. و الذنب ليس ذنبهم؛ بل ذنب سبعين مليوناً ليس فيهم كفاءة إلا هؤلاء الدستة –ساكنو البدروم– الذين أحبوا الشاشة فأحبتهم الشاشة، و غنت لهم ليلى مراد؛ يا ساكني البدروم من ليَّه في حيِّكم / الناس تيجي و تروح و لا ضيف غيركم.

***

رسالة من تحت الماء

أمي الحبيبة...

تعلمين يا أمي أنني ذهبت لأعرق لا لأغرق؛ لكنه القدر و ظلم البشر. كنت أبحث عن لحظة دفء افتقدتها في وطني. عن لقمة عن علبة سجائر عن مسطرة بلاستيك ملونة؛ لأبحث عن عباءة لك، و دواء الروماتيزم، عن نظارة طبية تحتاجها زوجتي. أنقب في القاع الآن و لا أجدهم. لم يطردني حضنك؛ لكن لفظني حضن الوطن. لم يعلمنا الفارق بين البطولة و البطالة. في قاع البحر يا أمي لا بورصة و لا احتكار، و لا لجنة سياسات و لا تعذيب، و لا خوف؛ فإن الغريق لا يخشى من البلل. اختفيت يا أمي و لم يعثروا عليّ حتى أوفِّر ثمن أكفاني؛ فنحن لم نسدد بعد ثمن السفر، فلا تسأليني عن اسم البحر الذي غرقت فيه الأبيض أم الأحمر أم النيل! فقد غرقنا معاً في الديون. و سدوا أمامنا أبواب الأمل و العمل ليفتحوها لأبنائهم. أوصيك بابني كي لا يغرق، دعيه ينسى ما حكيته له عن قطز و بيبرس، و ملوك العرب في الأندلس، و احكِ له عن ملوك السمسرة في البورصة. علِّميه ليصبح جديراً بأن يكون حارس أمن لرجل أعمال، أو سكرتيراً لسمسار، و إذا سألك عن قبري فقولي: إن لي ألف قبر في كل مصنع باعوه و كل بنك نهبوه. ارفضي يا أمي أن تقبلي فيّ دية. و انتظريني مع كل شروق على الشاطئ، و اسألي الأمواج عن حفيد لي قد يأتي إليك و في يده العباءة، و دواء الروماتيزم، و في اليد الأخرى الأمل و الخلاص.

(ابنك الشهيد)

***

مرفوع من الدعم

البعض لا يرتاح لشهر ديسمبر على أساس أنه واحد و ثلاثون و بدون أسانسير؛ لكنني أفرح بقدومه مع المطر الذي يحمل الخير. و قد تأكدت أن الدنيا بخير عندما قام لي شاب في الترام، و أجلسني مكانه، ثم همس في أذني "هات حق الكرسي". لم يعد هناك شيء ببلاش. اتفقت الحكومة و الشعب على إلغاء القسم المجاني من الحياة. من مقدمة الدراسة و سرير المستشفى حتى نظرة الاحترام مدفوعة الأجر. و حتى مستشفى المجانين من لا يدفع يطردونه إلى الشارع لتتلقفه إحدى العصابات ليحلل لها الحرام أو إحدى الفضائيات ليحلل لها الأخبار. ذهب بلا رجعة و توفى أبو بلاش حتى في الشواطئ، و دورات المياه العمومية و مقابر الصدقة. فمن الناحية الطبية، الدعم نوعان؛ نوع حميد يمكن التعايش معه مثل دعم الأثرياء و تقديم التسهيلات و الإعفاء من الضرائب و الرسوم و بيع متر الأرض أرخص من متر الكستور، و نوع خبيث يجب استئصاله فوراً حتى لا يتمدد و يتضخم، و تحدث مضاعفات نتيجة دعم الرغيف و أنبوبة البوتاجاز و علبة الدواء مع تحديد سبب الإصابة بالدعم حتى لا يتكرر. أصابتنا الحكومة بالفزع و الرعب، و أصبحت مثل عصابة خطفت طفلاً و راحت تتصل بأهله كل ساعة لتهددهم"هنرفع الدعم، هنرفع الدعم إذا لم توافقوا على المقابل المادي". الغريب أن البرنامج الانتخابي للسيد الرئيس لم يتضمن بناء مفاعلات ذرية، و لم يتضمن رفع الدعم أو استبداله فعلى أي أساس انتخبه الناس و رفضوا أحمد الصباحي.

***

الهروب مع "زبلن"

معظمنا يأكل على مائدة "معاوية" لأن مائدته أدسم. و يصلي وراء "علي" لأن صلاته أطيب. فبعد ساعات تغلق مكاتب الهجرة العشوائية إلى الولايات المتحدة الأمريكية أبوابها؛ و هي الهجرة التي يتقدم إليها سنوياً في تقدير البعض سبعة ملايين مواطن من مصر وحدها يتم اختيار سبعة آلاف منهم للإقامة هناك دون توفير سكن، أو فرصة عمل (خد بالك) سبعة ملايين مواطن يختارون بإراداتهم الحرة و في صمت بدون دعاية و بعد دفع الرسوم الجلوس على مائدة بوش، و البقاء تحت حكمه دون سكن أو فرصة عمل، و معظمهم يعارض أمريكا، و يرى فيها الشيطان الأكبر، بينما لم تنجح الضغوط و الإغراءات و الدعاية المكثفة في التليفزيون و الصحافة و التزوير أحياناً في الحصول على ستة ملايين مواطن يقولون "نعم" لمبارك، رغم أن نصف هؤلاء على الأقل لهم سكن و عندهم فرصة عمل، و النصف الثاني معه برنامج يعده لذلك. انتقل الناس من "الحلم العربي" بعد أن عجزوا عن تفسيره إلى "الكابوس الأمريكي" فالإقبال على هذه المكاتب يفوق بكثير الإقبال على لجان الانتخابات و نوافذ بيع الخبز و أفلام "اللمبي". و ظاهرة الهجرة العشوائية و الشرعية و غير الشرعية من مصر تستحق الدراسة؛ لكن ليس الآن، بل عندما نلاحظ أن عدد سكان مصر أصبح أقل من عدد سكان "قطر"؛ وقتها من الممكن دراسة هذه الظاهرة في هدوء بعيداً عن الزحام و التكدس و الضوضاء و الوصول إلى حل للاحتفاظ فقط بالستة ملايين مواطن الذين يقولون "نعم" للسيد الرئيس، لقد جرب المصريون كل طريقة للهروب كما كان يحدث أيام سور برلين إلا بطريقة منطاد "زبلن". ربما بسبب رفع الدعم عن "زبلن".

***

حرامي الحلة

لي صديقان. أحدهما عنده "مليار جنيه" و الثاني عنده "جديري مائي" و في كل خير، و إن كان المؤمن الغني أحب إلى الناس من المؤمن المريض لأن زيارة الأول تحملك الهدايا و أنت راجع من عنده، بينما زيارة الثاني تحملك الهدايا و أنت ذاهب إليه. و مبادئ حقوق الإنسان تملي عليك أن تعدل بينهما أو تحتفظ بأحدهما و تخصخص صاحب الجديري. بعد تمهيد مدفعي مكثف من المشايخ بأن فوائد البنك حرام، عبر صديقي الأول مع المشاة من رجال الأعمال، و أقام رأس كوبري لتلقي الأموال و توظيفها بعيداً عن البنوك، و اتبع نظرية الاقتصادي الكبير "جحا" بأن الحلة تلد حلة صغيرة ثم تموت و هي تلد "المقلاية". أما صاحبنا الثاني فقد باعوا المصنع الذي يعمل به كباشمهندس، و أخذوا منه الخوذة الحديدية الملونة، و الجوانتي و أعطوه مائة ألف جنيه كمؤخر صداق. ثم قام بصفته صاحب الحلة –المكافأة– بتسليمها إلى صاحبنا الأول على أساس أنه إمام الجامع، بينما الثاني كان مصلياً عادياً يقف في الصف خلفه، و قال: "نحن نأتمنه على ديننا أفلا نأتمنه على حلة". في الشهر الأول ولدت الحلة توأماً (ألفي جنيه) و في الشهر الثاني قلّت نسبة الخصوبة عندها فولدت ألفاً واحداً؛ و يبدو أنها في الشهر الثالث أجهضت قبل الميلاد فنزل الجنين مشوهاً (خمسمائة جنيه) و في الشهر الرابع ماتت الحلة الأم على فرشتها دون أن يلمسها مخبر أو يعذبها ضابط، و أوصت بأن تدفن بجانب "سقراط"؛ فسافر "الإمام" بها إلى "أثينا" و استقر هناك و ترك لها صكاً بغطاء حلة، بينما استقر صديقنا الثاني في المطار يغني "ستفتش عنها يا ولدي في كل مكان" و يراقب وجوه العائدين من اليونان و العائدين من أفغانستان لعله يعثر على حرامي الحلة دون جدوى. و أخيراً و هو يشاهد العائدين من "أنابوليس" لاحظ أن عباس يحمل صكاً بغطاء حلة مثله، فهانت عليه مصيبته.

***

مدينة الإنتاج الإسلامي

"هل ممكن أن يأتي يوم نشاهد فيه على شاشة التليفزيون مسلسلاً مسيحياً"؟ عندما قيل لأحد البسطاء إن العلماء اكتشفوا غاز الأوكسجين منذ مائتي عام، تساءل في سذاجة: إذن كيف كان الناس يتنفسون قبل ذلك؟ و الحقيقة أنهم لم يخترعوه بل اكتشفوه فقد كان موجوداً. تاريخ مصر السياسي لم يبدأ مع طلعت حرب، و تاريخ مصر الديني لم يبدأ مع دخول العرب؛ فقد كان الناس قبل ذلك يتنفسون الأوكسجين و يعبدون الله. كان الأنبا مقار الكبير يفعل ذلك و "أنطونيوس" أبو الرهبان، و ماري "مينا" الذي يزوره الجميع، و الست "دميانة" التي يحضر احتفالات مولدها المسلمون و المسيحيون. هناك إصرار على نزع صفحة من دفتر أحوال الوطن. حتى في العصر الحديث تحدثوا عن كل أصدقاء عبد الناصر و معارفه حتى الترزي و المكوجي، دون أن يتحدث أحد عن صداقته الحميمة بمواطن مصري كان يزوره في منزله و يختلط بأولاده هو المواطن المصري الدمنهوري "عازر يوسف عطا" (البابا كيرلس). إن إعلاء مبدأ "المواطنة" لا يكون بمائدة الوحدة الوطنية التي يسيطر عليها "الجنبري" و تدير الحوار فيها "اللحوم البلدي". و لا بترديد شعار "يحيا الهلال مع الصليب". لأن البعض يكمله قائلاً: "يحيا الهلال مع الصليب في مشاكل". و لا بتلامس ذقن الشيخ مع ذقن القسيس، بل بخطوات جادة يقدم فيها كلا منا نفسه إلى الآخر. نعم نحن في حاجة إلى أن نتعارف؛ فالإنسان عدو ما يجهل و ما نجهله عن بعضنا كثير. إن من يشارك في دكان يعرف كل شيء عن شركائه. فما بالك بشركاء الوطن! هل تتخذ مدينة الإنتاج "الإعلامي" هذا القرار الوطني؟ أم أنها فقط مدينة الإنتاج "الإسلامي"!

***

البنك و الخروف

"ابن أبيه" في التاريخ هو من تنازع على أبوته كثيرون أو تبرأ منه الجميع. و تاريخنا العربي فيه بعض من لو ذكرناهم لصدمنا القارئ؛ لذا نكتفي بـــ "زياد ابن أبيه" حاكم العراق الأشهر أيام الأمويين؛ و الذي قلده في شدته كل من جاء بعده (قدر العراق) مثل "الحجاج بن يوسف الثقفي" الذي كان يعتبر زياداً مثلَه الأعلى، و الحجاج هو أول من (وضع النقط على الحروف) في اللغة و يحمد للحجاج أنه قام بتنقيط حروف القرآن الكريم. و في التاريخ الأوروبي أيضاً "ابن أبيه" و "بنت أبيها" و أشهرهم "إليزابيث الأولى بنت أبيها" التي يخرج من نسلها ملوك إنجلترا؛ فقد تزوج هنري الثامن أمها "آن بولين" و بسببها انفصلت كنيسة إنجلترا عن الكنيسة الكاثوليكية الأم في روما، و بعد ألف يوم فقط قطع هنري رأس بولين بعد أن اتهمها بخيانته مع بعض رجال القصر، و صارت ابنتها إليزابيث "بنت أبيها". أما أشهر "ابن أبيه" في التاريخ المصري فهو "القطاع العام" الذي ادعى أبوته الدولة و الحكومة و الشعب و العمال و مجالس الإدارات و النقابات، ثم تبرأ منه الجميع و تنازعوا فقط على التركة. و بعد دعوة نسب رفضها القضاء الإداري في حكم شهير تم البحث له عن أب بديل هو الشركة القابضة (للريح أو للربح) و من المعروف أن من "تبنى" ليس كمن "بنى" فأصبح القطاع العام على مائدة اللئام. لدرجة أن الشروط التي تضعها أستراليا لبيع الخراف و الماعز لمصر أقسى من الشروط التي تضعها مصر لبيع البنوك و الشركات. مما يذكر أن "إليزابيث بنت أبيها" ماتت في قصرها، و أن "زياد ابن أبيه" مات على فراشه، أما "القطاع العام ابن أبيه" فقد تم اغتياله.

***

إمبو !

الناس في بلدنا نوعان. نوع يقع في أزمة فيقول "يا رب" و نوع آخر يقول يا "بنك". لكن إذا انقطعت المياه عنك و أنت تستحم؛ فقد تخرج على السلم بالصابون و تصرخ لتنادي على الجار العلوي، و لا يمكن أن تجيب من الآخر، و تخرج على السلم لتنادي على "إثيوبيا" على أساس أن رحلة المياه تبدأ من هناك؛ فهذا متروك لحكومة تنظر إلى الشرق عبر الأطلنطي من حيث يجيء الدولار، و إلى الشمال من حيث يجيء اليورو، و إلى الشرق من حيث يجيء عباس و أولمرت، و لا تكلف خاطرها بالنظر إلى الجنوب من حيث تجيء مياه الشرب. و تعامل حوض النيل و كأنه حوض غسيل فتترك أمره للسباكة لا للسياسة. كل خمسة أكواب ماء نشربها تأتي أربعة منها من إثيوبيا، و كانت دائماً علاقتنا بها عميقة مهما اختلفت السياسات، و كان الإمبراطور "هيلا سيلاسي" هو الذي افتتح الكاتدرائية المرقسية بالعباسية مع عبد الناصر؛ فالناس هناك أرثوذكس كانوا يتبعون الكنيسة المصرية و يعين البابا شنودة (بابا الإسكندرية و سائر أفريقيا) أسقفاً لهم، ثم ضربت إسرائيل إسفيناً عندما سلمت دير السلطان بالقدس إلى أرثوذكس إثيوبيا لا أرثوذكس مصر؛ و قد بدأ التدهور أيام السادات الذي عادى نظام "مانجستو" هناك مجاملة لأمريكا، و عرض توصيل مياه النيل إلى إسرائيل. و منذ ربع قرن و العلاقات معهم عادية و فاترة منذ تعرض الرئيس مبارك لمحاولة اغتيال هناك، و للأمانة فالرئيس يعي أهمية إثيوبيا؛ لذا لم يسئ إليها لكنه لم يعد إليها مرة أخرى، و الخطأ أننا اعتمدنا على المعاهدة الموقعة معهم منذ أيام الإنجليز دون أن نتفاعل مع ظروفهم القاسية، و دون أن نساعدهم فنياً و عينياً، و تركنا الآخرين يفعلون ذلك. و قد رأيت بنفسي مهندسي الري المصريين يتابعون مقاسه للمحافظة على حصة مصر (٥٥ ملياراً) و هم الأثر المصري الوحيد الموجود هناك و هو لا يكفي. نريد حكومة تخرج من ملاعب الجولف و تقف على السلم بالصابون، و تصرخ بأعلى صوت يا "إثيوبيا" قبل أن يصرخ الشعب "إمبو".

***

من أسرار التحنيط

هل تعرف اسم رئيس جمهورية الصين أو رئيس الوزراء أو وزير الخارجية، الحاليين أو السابقين؟ الإجابة غالباً لا، مع أننا نتحدث عن ربع سكان الأرض و دولة نووية عظمى تمتلك حق الفيتو و تمتلك خامس اقتصاد في العالم، عاصر جيلي "أندريه جروميكو" وزير الخارجية السوفيتية العملاق، ثم عاصرنا آخر وزير للخارجية السوفيتية "شيفر نادزة" و هذا أخف أسمائه الثلاثة، و لما قيل لأحد وزراء الخارجية الغربيين: هل تقابل "شيفر ناتزة" للتعرف عليه قال: أنا أحتاج أولاً إلى ستة شهور لأحفظ اسمه. و قد كان الاسم الحقيقي لهتلر هو "هنتلر" و تحول على الألسنة إلى "هتلر". أسهل و أخف. سهولة الاسم تحقق الرواج و هي اللعبة التي تدركها التيارات الدينية المتشددة. مثلاً ما ترتديه المرأة على وجهها اسمه "قناع" و باللغة العربية "لثام" لكنهم قبل أن يقدموه بحثوا له عن اسم يسهل تداوله. رفضوا كلمة "مقنعة" و كلمة "ملثمة" و اختاروا الأخف "منقبة". انظر كيف وضعوا الدنيا كلها في كبسولة "الإسلام هو الحل". ثم تعالى على الجانب الآخر للمثقفين "المؤتمر الأول لملتقى الاستنارة في ظل العولمة بين الثبات و الحركة" أو "نحو عالم يموج بالتداخل الفكري و الإسقاط العقائدي" أو "جماعة التحرر المنطقي على خليفة واقع متأزم". بل ظل المثقفون لسنوات طويلة يستخدمون كلمات "التطرف و متطرف و متطرفون" و هي كلمات ثقيلة على لسان الإنسان البسيط لمجيء الطاء بعد التاء حتى هداهم المولى إلى كلمة "إرهاب" جاءتهم سابحة عبر الأطلنطي. صحيح نحن الذين اخترعنا التحنيط، لكنني لا أعرف. هل قدماء المصريين هم الذين حنطوا المثقفين أم أن قدماء المثقفين هم الذين حنطوا المصريين؟

***

صلُّوا من أجل الرغيف

لبنان يبحث عن رئيس. و مصر تبحث عن رغيف. خمس دول تعبث في لبنان أوصلته إلى ما هو فيه. فما بالك برغيف العيش الذي تعبث به ست دول مصدرة للقمح؛ بالإضافة إلى ميليشيات التموين و التضامن الاجتماعي و الجمارك و المالية و الاستثمار و البيئة و الصحة و البترول و المستوردين، و النقل و الحاويات و الملح و الصودا و الكهرباء و الغاز و الصوامع و التخزين و البورصة، و الحكم المحلي و مرفق المياه و المطاحن و أخيراً الفرانين. و هي ميلشيات لو تجمعت على إمبراطورية لحولتها إلى قرية. كل هذه الميلشيات تتجمع حول الرغيف المستدير و كأنه مائدة مستديرة لتحدد وزنه و حجمه و ثمنه و لونه. بالضبط كما تفعل الميليشيات في لبنان. و لو خطفت كل ميلشيا من الرغيف لقمة، فماذا يتبقى؟ من الرغيف أو من لبنان. طلبنا من الحكومة أن ترفع "الطوارئ" فقررت أن تستجيب و ترفع "الدعم". و عندما يقول الدكتور نظيف إن الموضوع بسيط و العملية سهلة و لن يحدث تغيير، و لن يشعر المواطن بشيء بل سوف تتحسن حالته؛ فهذا كلام يمكن أن يقال لمواطن ننوي أن نشيل له "اللّوز" و ليس الدعم، فقد صار الدعم و الرغيف مثل التوأم الملتصق و فصل التوأم في مصر عملية صعبة و عواقبها خطيرة، لا ترفعوا الأجهزة عن الرغيف حتى الموت؛ بل ارفعوا عنه الأجهزة التي تلتهمه. تقولون ارفعوا أيديكم عن لبنان، و أنتم أيضاً ارفعوا أيديكم عن الرغيف. جربوا استفتاء حقيقياً حول نوع الدعم و استمعوا إلى صندوق الاستفتاء لا صندوق النقد. فالمناقشة التي تدعون إليها هي نوع من "اللت و العجن" حتى يتخمر قراركم المنتظر الذي حدده قادة الميليشيات و أمراء البورصة. صلوا من أجل لبنان و صلوا من أجل الرغيف.

***

الباص و الفنطاس

قال سائق العربة الميكروباص و هو يهدد الركاب إنه قتل راكباً و لسة طالع من السجن، ثم طلب جنيهاً زيادة على الأجرة التي حددها المواثيق الدولية، و أدار في مسجل العربة شريطاً يحض على طاعة السائق و إن فسق. و إن سرق فهو نعم الرفيق و مرشد الطريق، و كان الناس في داخل الشريط يصفقون و في داخل العربة ذاهلين. قابلنا كميناً فطلب منا السائق أن نربط الدعم، و بعد الكمين طاب منا أن نرفعه. قال أحد الركاب –يبدو أنه رئيس تحرير العربة– "لقد وهبنا الله هذا السائق و يجب أن نحافظ عليه". فرد عليه رجلاً عجوزاً يبدو أنه لم يشاهد مسلسل الملك فاروق: "حافظ عليه لوحدك". فرد عليه شاب ملتح "استغفر ربك و أطعم عشرة سائقين". و قالت سيدة "على رأي المثل: الدقيق الأبيض يباع في السوق السوداء". كانت العربة على وشك السقوط في النيل عندما قال السائق: "موافقين على الزيادة أم لا"؟ ثم نظر إلى الركاب و قال "موافقة". قال الرجل الذي لم يشاهد مسلسل الملك فاروق: "أنا مش موافق و مش دافع" فأسرع السائق بالعربة في اتجاه لوري فنطاس محمل بالغاز المدعم، و أقسم أنه سيرتطم به و يفجر العربة بمن فيها. ففرح الشاب الملتحي و هلل قائلاً: "استشهادي و رب الكعبة". فقال شاب متأنق: "أنا لست استشهادياً أنا ح أدفع الجزية و دعني أنزل". بينما قال رئيس تحرير العربة "سر و نحن وراءك". قال العجوز للسائق: "يقصد نسير وراءك في جنازتك". غضب السائق و أقسم أنه سوف يرتطم بعربة الغاز المدعم لا محالة، و راح يبحث عنها حتى وجدها و سار وراءها من شارع إلى شارع حتى خرجت إلى الصحراء. ساعات طويلة و هو يطارد عربة الغاز المدعم في الصحراء و كاد يقترب منها عندما قرأ لافتة على الطريق تقول؛ "أهلاً بكم في أرض الميعاد".

***

قطار الوظائف السريع

في العام الماضي بدأت تصل خطابات التعيين من القوى العاملة إلى المشاركين في ثورة ١٩١٩، طبقاً لاحتياجات سوق العمل؛ و لذلك عندما تخرجت تعلمت من تجربة أبي الذي وصله خطاب التعيين بعد وفاته بسبعة عشر عاماً، و عرفت أن الدنيا مثل التاكسي لا تنتظر أحداً. لذلك نصبت خيمة أكبر من خيمة القذافي في باحة محطة السكة الحديد لأنتظر قطار الوظائف الذي يصل على رصيف نمرة خمسة في الساعة السابعة صباحاً، حتى أكون على مكتبي في وظيفتي الجديدة في الساعة الثامنة تماماً. و عندما وصل القطار محملاً بالوظائف، قال أحد الواقفين إنه كل يوم يحصل على وظيفة جديدة و معاش جديد و مكافأة، و أنه جاء ليحجز وظائف لأطفاله. و أعلن ميكروفون المحطة عن وصول القطار، و أن الوظائف المميزة موجودة في عربات رقم واحد و اثنين و ثلاثة، و أن رقم أربعة مخصصة للعاطلين. و قال طبيب كان يكنس الرصيف: إن رئيس تحرير صحف الحكومة لا يحضر إلى هذا القطار و لا يستعمله فتصرف له الحكومة –بدل قطار– و هذا ما يجعل مرتبه يصل إلى مليون جنيه. و قالت فتاة خريجة آداب إنجليزي؛ إنها حصلت من العربة المميزة على وظيفة "ماشطة" فاتهمها المفتش بأنها معارضة و تريد أن تسيء للقطار الذي يعلم العالم كله أنه يسير بالمازوت النقي. اندفعنا جميعاً نحو عربات الوظائف المميزة و حصلت على خطاب تعيين في وظيفة "متبرع دائم بالدم". لاحظ أحد الواقفين حزني؛ فعرض عليَّ أن نتبادل الخطابات، و بعد انصرافه قرأت الوظيفة في خطابه "كلب حراسة فيلا لرجل أعمال". فاتجهت إلى خيمتي المنصوبة و رفعت عليها علم الأمم المتحدة، و أخبرت الجميع أنني أعمل مراقباً لخطوط إطلاق النار. و أطلب مقابلة السكرتير العام بنكي مون أو بنك القاهرة.

***

نبوءات العام الجديد

إذا كانت نتائج العام الجديد غير مزورة، فإننا ننفرد بنشر نبوءات العام الجديد أن تؤكد لحضرتك أن مصر تحولت إلى كارت بوستال و صورة و لوحة بلا حراك أو تغيير، و الآن إلى النبوءات:

عباس يزور مصر. تقديم الساعة في مايو و تأخيرها في سبتمبر.

الامتحان من المقرر و في مستوى الطالب المتوسط. الحزب الوطني يفوز بالمحليات و النادي الأهلي يفوز بالدوري العام. انقطاع المياه عن مدينة نصر. زيادة أعداد الحجاج. الرئيس يتلقى اتصالات هاتفية. ظهور ريان جديد. ارتفاع أسعار البترول و زيادة دخل القنال و انخفاض مستوى المعيشة. ارتفاع أسعار السلع و انخفاض منسوب النيل. صفحات الدين في الصحف تنشر في رمضان مبطلات الصوم و منها بلع الريق. الاحتفال بانتصارات أكتوبر و الرئيس يزور قبر السادات و يقرأ الفاتحة. غرق مصريين على سواحل أوروبا و استمرار تعويم الشباب بعد تعويم الجنيه. بيع بنك القاهرة و مجموعة شركات. ممتاز القط يثني على السيد الرئيس. لغط حول حجاب عبير صبري و حنان ترك. استمرار مشاكل نادي الزمالك. فتوى عجيبة لفضيلة المفتي. خلاف حول ختان الإناث. اكتشاف حالات إنفلونزا الطيور. نقود الدعم و جوائز المهرجانات لا يصلان إلى مستحقيها. الرئيس يحضر حفل تخريج في الكليات العسكرية. عرض فيلم الأيدي الناعمة في أول مايو و رد قلبي في يوم ٢٣ يوليو. رفع دعوى على مسلسل و فيلم. قتل مواطن في قسم الشرطة. القبض على بعض أعضاء الإخوان. براءة بعض المتهمين بالفساد. حادث قطار بعد الفطار. منح الموظفين علاوة يوليو. شريط جديد لعمرو دياب و شريط آخر لأيمن الظواهري. مصر تدين ما يحدث في كل مكان. سمير رجب يصدر الكبسولات لوزارة الصحة. استمرار تزوير الورقة فئة مائتي جنيه و فئة مائتي مرشح. التغيير سوف يشمل ديكور "البيت بيتك". اكتشاف مبيدات مسرطنة و الإعلان أنها اكتشافات بترولية. عودة حسام بدراوي و الإفراج عن حسام أبو الفتوح و اعتزال حسام حسن. تشكيل وزاري جديد يهتم بالناحية الهجومية و تعيين الطفلة آلاء وزيرة للتربية و التعليم، و أخيراً العالم يشيد بمصر و مصر تشيد بالعالم.

***

ليلة القبض على الخروف

عاشق أنا للحرية، لذلك تعودت في كل عيد أضحى أن أشتري خروفاً و أطلق سراحه. هذا العام هرب مني خروف العيد دون أن أأذن له، فتوجهت إلى قسم الشرطة لعمل محضر بأوصافه. كان الصول يأكل فانتظرت. لكنه قال لي "عايز بلوبيف تاني" فاتجهت للمحل المقابل للقسم و أحضرت البلوبيف و وضعته أمامه، و بعد أن انتهى شرحت له قصة الخروف الهارب فسألني: هل له أعداء؟ لا. هل بينه و بين أحد خلافات؟ لا. هل عليكم ثأر؟ لا. ثم سألني: هل شاهدت رجل أعمال يحوم حول المنزل في الفترة الأخيرة؟ قلت له: هناك رجل أعمال يحوم حول المنزل منذ فترة لشرائه و هدمه و بناء برج. فطلب مني أوصافه و رقمه. و سألني: هل تستطيع أن تتعرف على الخروف؟ قلت له إنني أستطيع أن أخرجه من ألف بقرة. فأخرج لي مجموعة من الصور لمجرمين هاربين لأتعرف عليه فلم أجده. فصرفني من ديوان القسم بكفالة لحين عرضي على النيابة. و في اليوم التالي جاءتني إشارة من القسم بسرعة الحضور لاستلام المسروقات. دخلت على الصول و كان يأكل و عندما رآني قال لي: "عايز بلوبيف تاني" فتوجهت إلى المحل المقابل للقسم فوجدت زحاماً شديداً و جميعهم يشترون بلوبيف للصول. و بعد أن انتهى قال لي: مبروك ثم عرض أمامي تليفزيوناً و مسجلاً و حلقاً ذهباً و فانوس عربة لوري و فستان عروسة. و سألني: هل خروفك المسروق في هذه الأشياء؟ فأشرت على الحلق الذهب و قلت لحضرة الصول "أيوة ده الحلق الذهب اللي كان الخروف لابسه". فابتسم الصول و أمسك جهاز اللاسلكي و قال: "إلى جميع الكمائن مطلوب القبض على خروف يسير في الشوارع بدون حلق ذهب"!

***

خلّي السلاح نايم

تبدأ غداً فترة "قفا العيد"؛ و هي الفترة التي يتوقف فيها المصريون عن العمل بحجة أنهم خارجون من عيد. و هذه الفترة فلكياً تبدأ من صباحية العيد حتى وقفة عيد الأضحى القادم و بدون توقف أو انقطاع عدا أيام نادرة فيها عطلات عن الكسل، و هذه الفترة هي أطول قفا عرفه التاريخ؛ إذ شاءت المقادير أن تخصنا به لنمارس فيه حقنا في الكسل، و هو حق اكتشفه الفرنسيون و لا يطبقونه و تركوا ذلك للمصريين، و قد تنبأ جورج برنارد شو بزوال الإمبراطورية البريطانية لمجرد أنه شاهد بعض الشباب الإنجليزي يستمتع بالشمس في الحدائق في ساعات العمل. لكن من المؤكد أنه لم يشاهد المقاهي المصرية التي يغني فيها الناس: (خلّي السلاح نايم / العمل مؤقت و ربك الدايم / و الله ما أنا قايم). و مع ذلك فإن معدل التنمية في إنجلترا حوالي خمسة في المائة، بينما يصل معدل التنمية في مصر إلى (عشرة و حداشر و إتناشر) لأن معدل التنمية عند كل شعب مرتبط بميعاد صحيانه من النوم؛ فالإنجليز و أولهم جورج برنارد شو يستيقظون في الخامسة فجراً لتناول النبيذ، و نصحو نحن في الثانية عشرة لنصلي الظهر. و قد تحول الوطن إلى مقهى كبير عندما حولت الحكومة "القطاع العام" إلى "البتاع العام" و أصبح حتى من يريد أن ينتج من حقه أن ينتج على نفسه أو في أقرب مقهى للشياخة التابع لها.

و إذا كان معدل العمل الحقيقي للفرد هو ٢٧ ثانية، فإننا أيضاً نحصل على مولود جديد كل ٢٧ ثانية، لكننا نفشل في الحصول على حاكم جديد كل ٢٧ سنة. فهذا وطن حصل شعبه على تأشيرة من النيابة بأن تبقى الحال على ما هي عليه، و حصل حكامه على تأشيرة بمراعاة التجديد بعد انتهاء الفترة. أنا وجعت دماغك، تحب بقى تشرب إيه؟

***

مع حبي و احترامي

لشاه إيران كلمة نصفها حقيقي و نصفها زائف. كان الرجل يقول "إنسان في العشرينات من عمره، و ليس يسارياً؛ هو إنسان بلا قلب، و إنسان في الأربعين من عمره و لا يزال يسارياً؛ هو إنسان بلا عقل". و ربما قالها الرجل متأثراً بمحاربته لليساريين في إقليم "ظفار" في "عُمان" أو لحزب تودة اليساري في "طهران"، و إن كان يجتر ذكريات تأميم مصدق للبترول في إيران؛ على أية حال فإن التحول وارد إنسانياً، و قد رأينا من يتوب عن الفن و من يفتن في التوبة. و قد طبق عبد الناصر سياسة "رأسمالية الدولة" بنفس الرجال الذين طبق بهم السادات فيما بعد سياسة "رأسمالية التولة". و قد ظل "طيطا" يوقظنا في أزقة بحري ثلاثين عاماً لصلاة الفجر، و قبل أن يموت بشهر واحد افتتح خمَّارة. و كنت أظن أن "طيطا" مات إلى أن فوجئت بصحفي نحبه و نحترمه يترل من عربة الاستنارة ليركب عربة مفخخة. ترك الرجل السنبلة و أمسك بالقنبلة. أصابته عوامل التعرية فترك تعرية الفساد إلى تعرية النساء بعد أن اقتنع بأن نشر الفتن و التعصب و الطعن في دين الآخرين لن يحبسه؛ بل يقلل المخاطر و يزيد التوزيع. تغلب الحس المهني على الحس الوطني. ما لا يعرفه الزميل الجميل الذي ما زلنا نحبه و نحترمه أن "طيطا" رغم حرصه مات في السجن؛ فقد اكتشفوا أن الخمر الذي يقدمه مغشوش. مات في "السجن" كما مات شاه إيران في "المنفى" بعيداً عن الوطن. و ما أقسى الابتعاد عن الوطن.

***

حضرة المواطن "العبوة"

عرف العالم فكر التعبئة و الاستعداد حتى قبل ظهور فرق الكشافة و الجوالة تحت شعارهم الخالد "كن مستعداً" و تحصر الدول مواردها و طرق استدعائها عبر آليات معينة أحياناً تكون أغنية متفقاً عليها. و فكر التعبئة الذي ساد في مصر عن طريق رجال الأعمال مختلف، فهو يعني استيراد كل شيء، ثم تعبئته و اقتصار الدور المصري في دورة الإنتاج على التعبئة و التغليف من أول الزيوت و اللحوم و مسحوق الغسيل حتى الأرز و البطاطس، نصف المصانع المصرية الخاصة يقتصر دورها على التعبئة و التغليف أو التركيب. فصحة عبارة "صنع في مصر" هي "عُبِّئَ في مصر" و تحول هذا الفكر –عديم الإبداع– إلى فكر مجتمع يتبناه و يحرص عليه، فالتربية و التعليم تحولت إلى "التعبئة و التغليف" تستورد المواطن من أسرته و تقوم بتعبئته و تغليفه في إطار جامد يجعله لا يدرك الفرق بين "عرابي" صديق "البارودي و طلبه" و عرابي صديق "ريا و سكينة" و يقول عن أحداث الأربعينيات "قامت الحرب العالمية للاستيراد و التصدير و مركزها الرئيسي في أوروبا". و اقتصر دور الإعلام على تعبئة و تغليف المواطن في حظيرة الطاعة أو صندوق التعصب. و انشغلت الحكومة في تعبئة البرلمان في علب التأييد دون الاهتمام بالمحتوى، و أصبح همنا الأكبر أن نعبئ النساء في الشادور او الخمار و الرجال في القفطان و السروال. و أصبحنا مجتمعاً معبأ بكل ما هو سيئ؛ بل أحياناً صندوقاً بلا محتوى، بل صار المواطن نفسه "عبوة". و للإنصاف فإن بعض الزملاء أيضاً يعبئ المسافة الخاصة به في الجريدة و لا يشارك في الإبداع. و الغريب بعد ذلك أن يتساءل البعض: لماذا تتوفر في مجتمعنا "عبوات الديناميت" و تنتشر الفتن الطائفية.

***

الركن البعيد
الزواج من السكريتيرة

تعفي الحكومة المصرية "المستثمرين" من الضرائب و الرسوم و التأمينات و التمغات و أتعاب المحامي و فلوس المأذون و مؤخر النفقة، و تقدم لهم الدعم في الماء و الكهرباء و غاز و المباني و الأراضي، و يمكن إذا حولت الدعم العيني للرغيف إلى دعم نقدي أن توفر خمسة عشر مليار جنيه تستطيع بها أن تعفي المستثمرين من مصاريف المدارس و أجرة السفر و العلاج و تذاكر السينما و تكاليف الحفلات و ثمن الطعام و إصلاح السيارات و أجرة المنزل و تكاليف هدايا عيد الميلاد، أما أجور الخدم فيمكن توفيرها من إلغاء دعم الغاز. ففي مال الفقراء حق معلوم للمستثمر المظلوم. و تؤاخي الحكومة بين الفقراء و المستثمرين حتى يتمكن المستثمرون من القيام بدورهم الإجتماعي المهم و هو الزواج من السكرتيرة. و يزعم البعض أن ما نهبه رجال الأعمال يفوق بكثير ما استثمروه، بينما تزعم الحكومة أنهم يوفرون فرص العمل، بدليل الإعلان الذي نشره أحدهم يعترض فيه على استمرار إغلاق مصنعه، و يقول في الإعلان إن هذا المصنع يعمل فيه ثلاثة مهندسين و سبعة عشر عاملاً يعولون مليوناً و نصف مليون مواطن، و أنا لا أفهم كيف تكون الأسرة مكونة من ربع مليون مواطن إلا إذا كانت أسرة "تحرير الأهرام".

***

قش الأرز و ممتلكات الأقباط

كنت أعتقد مثل كثيرين أن السحابة السوداء ناتجة من حرق قش الرز، إلى أن علمت أنها ناتجة من حرق ممتلكات الأقباط؛ لذلك إذا أرادت الحكومة أن تقلل من تأثير هذه السحابة عليها أن تضع علامة مميزة على ممتلكات الأقباط حتى يسترشد بها إخوانهم في الوطن أثناء عملية الحرق فلا يخطئون و يحرقون بعض ممتلكات المسلمين؛ فتصبح السحابة السوداء سحابة الوحدة الوطنية التي تضم رماد الوطن كله. و الغريب أن من يحرق قش الأرز توقع عليه الحكومة غرامة، بينما من يحرق ممتلكات الأقباط لا تفعل معه ذلك. على الحكومة أن تصدر مع كتاب الدين المقرر على المدارس دليلاً للطلاب بأماكن وجود ممتلكات الأقباط و أسماءهم و عناوينهم مع مقالات زغلول النجار و محمد عمارة و على شاشة البرامج الدينية. و أن توفر في محطات الوقود ماكينة لبنزين السيارات و ماكينة لبنزين الحرق بسعر أقل و في متناول الجميع. و إذا كانت الحكومة قد قررت تعويض الأقباط ببضعة ملايين من الميزانية فعليها أن تعلم –من تجربة الدعم– أن قيمة هذا التعويض سوف تتضاعف عاماً بعد آخر ليلتهم الميزانية و لا يصل إلى مستحقيه ثم تقع في إشكالية؛ هل تجعل التعويض عينياً أم نقدياً؟ و الحل أن تتحول الحكومة من شيخ عرب إلى حكومة حقيقية تطبق القانون، فكل من تحيله لنيابة أمن الدولة يهدد النظام، و لم تحل يوماً متهماً واحداً يهدد الدولة ذاتها ككيان، و إذا لم تفعل الحكومة ذلك فعليها أن تلغي الوجبة المدرسية التي توزعها في المدارس و تعطي كل تلميذ جركن بنزين. العجيب أن الحكومة تزيح الإخوان المسلمين، و مع ذلك تطبق برنامجهم في حرق الوطن.

***

اللي ميعرفش يقول "دعم"

تريد الحكومة أن تورطنا مرتين. مرة عندما تدعونا إلى مناقشة قضية "الدعم" بمعزل عن قضية ترشيد "الإنفاق العام" و مرة أخرى عندما تزعم أن هناك شيئاً أصلاً اسمه "دعم" فالحكومات في كل الدنيا تجمع إيرادات الدولة ثم تنفق منها على المجالات المختلفة فلا يوجد ما يسمى بدعم العلاج أو دعم التعليم و هكذا؛ و إلا أسمينا ما تنفقه الحكومة على الشرطة دعم أمني و على الجيش دعم عسكري، و على الرئاسة دعم رئاسي؛ فالحقيقة أنه إنفاق عادي اختارت الحكومة منه ما يخص الشعب و أسمته "دعماً" ليعطي إيحاء بمعنى الصدقة أو الإحسان؛ و هذا خطأ سياسي و اقتصادي انساق كثيرون وراءه مع الأسف. و قد أثبتت الحكومة الذكية أنها ذكية فعلاً عندما طرحت الموضوع للمناقشة على طريقة "كيف نسد عجز الموازنة بإلغاء الإنفاق عليكم". لأنها تعلم أن مناقشة الموضوع من باب ترشيد الإنفاق العام قد يدفع البعض للحديث عن المليارات التي تنفق على الأمن المركزي أو السفه الحكومي أو الإعفاءات أو غير ذلك، و أصبح كل جنيه تنفقه الحكومة على نفسها اسمه إنفاق، و كل جنيه تنفقه على الشعب تسميه دعماً، و لو كان على تذكرة سينما أو رصف طريق أو بناء مستشفى أو مدرسة أو محكمة. و أصبحت الست "ذكية" حرة تدعم السلطة الفلسطينية و لا تدعم أساسات عمارات لوران. تدعم "الحراسات" و لا تدعم "الكراسات"، فقد ورثت المال العام يوم أن قالت أن الإنفاق اسمه "دعم" و صدَّقها الناس؛ لذلك من حقها أن تمنعه عنا لتوزعه على أعضاء الحزب الوطني.

***

إعادة هيكلة الفول

كنا نتحلّق أمام عربة فول في إحدى ميادين العاصمة، و كان أحدنا ينتظر دوره، و يقرأ علينا عناوين إحدى الجرائد الحكومية، و بجواره شحاذ يعده بالجنة إذا استجاب له؛ فتشاغل عنه المثقف بقراءة العناوين:

– "سيتم ربط الأجور بالأسعار كما يربط الونش بالعربة المخالفة".

قال البائع:

– "أنا بدفع كل يوم عشرة جنيه علشان أقف هنا، لا الونش يتعرض لي و لا حتى زوارق إيران". قال المثقف:

– "سيتم زيادة مربوط خريج الجامعة، و سيتم ربط المواطنين على البطاقة". فصرخ شاب في وجهه:

– "جرى إيه؟! إنت مفيش عندك غير الربط؟ هيه دي صحفة الظبط و الربط"؟ التصق الشحاذ بالمثقف الذي راح يقرأ عليه أسعار الذهب في الأسواق العالمية، فنبهه الشاب أن الرجل يطلب "معونة" فقال المثقف:

– "أنا مش كونجرس، دي عربية فول يتجمع حولها الفقراء في وقفة احتجاجية". فتركه الشحاذ و اقترب مني، و عندما شاهد ملابسي ابتسم و انصرف إلى شخص آخر. و قال البائع:

– "اسمعوني كويس، إذا وصلت الإزالة أو شرطة المرافق، كل واحد يجري بالطبق بتاعه و نتقابل في شارع الحلفاوي". فقال الشاب:

– فين في شارع الحلفاوي؟ يا ريت تكون حتة ضل". فاعترض المثقف و طلب أن نتقابل أمام "الأتيليه". ثم استمر في القراءة:

– "أعلنت لجنة السياسات أن هناك إعادة هيكلة لإحداث التوازن". ثم سألني إيه رأيك؟ فقلت:

– "الملح كتير شويه، لكن الطرشي مش بطال". فقال:

– "أنا أسألكم عن إعادة الهيكلة". فقال الشاب:

– "ماشوفتهاش، لكن شوفت إعادة الملك فاروق". اقترب الشحاذ من البائع فسأله البائع:

– "تفطر"؟ قال الشحاذ:

– "أفطر بس مش فول زيهم". فسأله البائع:

– "مش عايز تاكل فول ليه"؟ قال الشحاذ:

– "أصل ما أعرفش فين شارع الحلفاوي". كانت الإزالة تقترب و نحن نرمح بالأطباق في اتجاه شارع الحلفاوي و الأمن المركزي وراءنا بالعصي، بينما كان المثقف يقرأ تصريحاً للسيد الرئيس يتحدث فيه عن كرامة المصريين.

***

مجتمع بلا سقف

أهوَن ما ينهار في مصر الآن هو أسقف العمارات. فمعظم أسقف المجتمع تنهار، و إذا كانت الحكومة تشكو من انفلات الشارع و الطوائف و الصحف و الفضائيات؛ فإن النظام السياسي هو الذي بدأ بهدم الأسقف الخاصة به كضوابط في الدستور و القانون سواء في التساهل مع المستثمرين أو التنكيل بالمعارضة. في العام الجديد (٢٠٠٨) سوف نحتفل بمرور تسعين عاماً على ميلاد الرئيس جمال عبد الناصر، و مرور ثمانين عاماً على ميلاد الرئيس حسني مبارك؛ أي انه منذ منتصف القرن العشرين حتى الربع الأول من القرن الواحد و العشرين لم يتحرك عمر الجالس على مقعد الرئاسة إلا عشر سنوات بسبب هدم سقف فترة الرئاسة و تركها مفتوحة. إن جلالة الملك فاروق الأول، و فخامة الرئيس مبارك كليهما من مواليد العشرينيات من القرن الماضي؛ أي أن الأجيال من الثلاثينيات حتى الستينيات، و هي أجيال حية عاصرت الحروب و الثورات و الانتصارات و الانكسارات، لم تجد فيهم مصر من يصلح حتى كنائب رئيس، و تمت التضحية بهذه الأجيال لعدم وجود سقف لمدة الرئاسة. إن الرئيس الأمريكي جورج بوش سوف يغادر البيت الأبيض في تمام الساعة الثانية عشرة من ظهر يوم الثلاثاء، عشرين يناير، القادم في سيارة سوداء بدون سائق توصله إلى مطار واشنطن، و يتركها هناك ليستقل طائرة عادية إلى تكساس؛ و هو الرئيس الوحيد الذي نعرف متى و كيف يغادر باليوم و الساعة، و سوف يصطحب معه معاونيه، لكنه بالطبع لن يصطحب معه أصدقاءه.

***

زلزال أونطة

في الأسبوع الماضي أعلنوا عن وقوع زلزال قوته أكثر من (٦) على مقياس ريختر، و قد لاحظت –و بعض ما ألاحظه إثم– أنه بعد كل انهيار كبير لعمارة تصبح حديث الناس يتم الإعلان عن زلزال "أونطة" يؤكد للناس على طريقة الأمن أن العمارات الواقعة حالات فردية، و ليست ظاهرة و أن القاعدة سليمة و يجلس عليها البوابون باطمئنان في مدخل العمارات، بدليل أن الزلزال لم يؤثر فيها، و قد حدث ذلك من قبل مع عمارة مصر الجديدة على سبيل المثال. في كل الدنيا تقوم الزلازل ثم تنهار العمارات. و ننفرد نحن بأن تنهار العمارات أولاً ثم تقوم الزلازل؛ فالزلازل أنواع، و كل نوع له معنى، فهناك "زلزال حقيقي" يحدث بسبب انهيار الكتل في باطن الأرض، و "زلزال أونطة" يحدث بسبب انهيار العمارات فوق سطح الأرض. و الأونطة في الزلزال أنه يكون قد حدث في أوروبا أو إندونيسيا أو أستراليا، ثم يُقال إن مصر تأثرت به، على أساس أن لنا أقارب يعيشون هناك؛ فعبقرية العمارات في مصر أنها تتحمل زلزالاً بقوة (٦) و لا تتحمل (٦) أشخاص يقفون فوق السطوح. و كمثال للزلزال الحقيقي و الزلزال الأزنطة؛ فقد اهتزت مصر من قبل مرتين، مرة حقيقي و مرة أونطة، مرة عند القبض على سعد زغلول و مرة عند القبض على تامر حسني.

***

حذار من الشفقة

يعلم الله أنني أكتب و أنا مصاب بخلع في كتفي، و قطع في أوتار أصابعي. فمنذ يومين شاهدت نعشاً يحمله أربعة رجال و لا يسير وراءه إلا صبي يبكي و امرأة عجوز فدفعتني إنسانيتي أن أقول لأحد العاملين "أجرني" أي اسمح لي أن أحمل النعش بدلاً منك لأنال الأجر؛ فوضع الرجل يد النعش مسروراً على كتفي –و قد عرفت فيما بعد سبب سروره– و قال لي "أجارك الله". و فعلاً أجارك الله ، إذ هرب الرجل و اختفى، و مشيت أكثر من خمس محطات أتوبيس دون أن أجد من يقول لي "أجرني". كان يبدو لي من الثقل أنني أحمل مقبرة جماعية، ثم صادفنا "مطلع" في أحد الشوارع أصعب من مطلع أغنية "أيها الراقدون تحت التراب". تذكرت و أنا أصعده رواية "ستيفان زفايج" (حذار من الشفقة) و التي تخيلت فيها من خلال قصة حب أن رجلاً أشفق على مريض ملقى في الشارع فحمله على كتفه، ثم اتضح أن المريض عفريت ظل على كتف الرجل إلى الأبد. كنت ألهث عندما لاح الفرج و اقتربنا من المقابر؛ لكن المرأة العجوز صرخت فينا "أبداً ابني مايدخلش لازم نعشه يفوت الأول على القهوة اللي كان بيقعد فيها في سيدي بشر و يشوفه أصحابه". قال الرجل الذي يحمل خلفي "حاضر يا خالتي" ثم صرخ فيّ "ارجع يا جدع تاني لف". و بدأت ألف و تلف بي الدنيا حتى سقطت فتركزني و اتجهوا إلى المقهى في سيدي بشر و اتضح لي من تجربتي أننا نفتقد العمل الجماعي و التعاوني حتى في أصعب الأوقات، و إذا كان خلع الحجاب يؤدي إلى المحكمة فإن خلع الكتف يؤدي إلى المستشفى، و أن كتف الحكومة قد انخلع من الدعم، و أنها سوف تمر به من أمام المقهى ليراه أصحابه و بعد ذلك سوف تدفنه. ربنا يستر.

***

فوق و تحت الركبة

رغم أن عضو البرلمان المحترم هارب و مختف، و لا يحضر جلسات المجلس الموقر منذ حوالي عام؛ لكن هذه الأيام و حفظاً لماء الوجه سوف تجتمع اللجنة التشريعية في مجلس الشعب لإصدار توصية إلى المجلس الموقر تمهيداً لرفع الحصانة عنه، بحجة الإخلال بواجبات العضوية، علماً بأن هذا النائب حكمت المحكمة بإحالة أوراقه إلى فضيلة المفتي تمهيداً للحكم بإعدامه في نهاية هذا الشهر بتهمة القتل العمد. و من لا يفهم في القانون قد يتعجب كيف يرفع المجلس الموقر الحصانة عن نائب –ليس من الحزب الوطني– تحكم المحكمة بإفلاسه و لا يرفع الحصانة عن نائب –من الحزب الوطني– تحكم المحكمة بإعدامه و الرد على هؤلاء تحدده حكمة القانون التي توصي برفع الحصانة بعد ساعة واحدة من إعلان الإفلاس، و بعد أربعين يوماً من إعلان الإعدام؛ و لذلك حكمة فقد ترد الروح إلى النائب بعد إعدامه فيقع المجلس في مشكلة قانونية بسبب التسرع، فالروح قد تعود لكن المال لا يعود، خاصة و أن المجلس الموقر قد قرأ بالتأكيد "عودة الروح" لتوفيق الحكيم؛ فإذا كانت الروح قد عادت لتوفيق الحكيم فمن الممكن أن تعود للحاج "الحمزاوي" إذا أعدم فيقع المجلس في إشكال، و هناك سابقة في مجلس الشيوخ الروماني "السناتو" الذي كان يرفع الحصانة فوراً في مخالفات المرور، و فور عبور النائب للإشارة الحمراء، لكنه كان يتمهل و لا يتسرع برفع الحصانة عن العضو الذي تحكم المحكمة بقطع رأسه و حتى لو قطعوا رأسه؛ بل كانوا برفع الحصانة إلى –فوق الركبة فقط– حتى لا يقع "السناتو" في خطأ دستوري، بدليل أنهم لم يرفعوا الحصانة عن النائب المحترم "بروتس" الذي قتل القيصر داخل البرلمان. لذلك كان يقال أيام أباطرة الرومان و الحديد و الأسمنت: إن الفساد للركب لكن الفساد نوعان، نوع فوق الركبة لمخالفات المرور، و نوع تحت الركبة لقتل البني آدمين.

***

حديث ذو سجون

معظمنا ولد في عهد السيد الرئيس و تربى و تعلم و تزوج و أنجب و سوف يموت أيضاً في عهد سيادته. و الموت في عهد الرئيس ميزة لا يشعر بها إلا من مات في عهد آخر. و أول هذه الميزات أنه سوف يرتاح من برنامج (البيت بيتك). و السؤال لماذا نهتم في مصر بالسجون أكثر من اهتمامنا بالمدارس؟ و الإجابة واضحة أن المدارس بالنسبة لنا هي ماض لن يعود، لكن السجون هي مستقبلنا جميعاً؛ لذلك سعدت بالاهتمام المفاجئ للفضائيات و الصحف الحكومية بأحوال السجون المصرية بمناسبة زيارة أعضاء الكونجرس الأمريكي، ثم الرئيس الأمريكي "كولومبوش" لمصر و كأننا نحتفل "بيوم السجين" أو "العيد القومي للزنازين". و هو فاصل كوميدي استضافوا فيه بعض المساجين السابقين ليؤكدوا توافر الماء النظيف و الكهرباء و التليفونات في السجون. و هو ما يدفعنا للمطالبة بإدخال مئات القرى المصرية المحرومة من هذه الخدمات إلى داخل كردون السجون. و يؤكد الأستاذ "مرتضى منصور" في اتصال هاتفي ببرنامج "البيت بيتك" أنه رأى مسجوناً مريضاً فجاء الضابط و حمله بنفسه إلى مستشفى السجن المجهز على أحدث طراز؛ و هي فكرة مركبة يمكننا الاستفادة منها، فيمكن أن نعالج المصريين المحرومين من العلاج في (الأحدث طراز) بدلاً من توجههم للخارج (خارج المستشفى). و يمكن توفير تكلفة عربات الإسعاف بوضع ضباط أحمال في داخل أقسام الشرطة لحمل المرضى إلى (الأحدث طراز). و إذا كنا نتحمل ما قاله السيد "مرتضى منصور" على أساس أنه رجل نزيه و لم يدخل السجن في قضية فساد. فكيف نتحمل ما قال "ماهر الجندي" الذي تحول إلى مستشار في أحول السجون؟ نسى هؤلاء أن يقولوا إن الحكومة تبني سوراً حول المساجين لحمايتهم من نزلات البرد. ألم أقل من البداية، اللي بيموت اليومين دول يا بخته.

***

الهروب الحزين

بعد عقد كامل من مسلسل "هروب الأغنياء" بدأنا نعيش في عقد مسلسل "هروب الفقراء" كليهما يدفعه نظام سياسي و اقتصادي فاشل إلى الهرب. منذ أيام تعلق الشاب "أحمد" بعجلات طائرة ليهرب إلى فرنسا بالضبط كما فعل "رامي لكح". أحمد تسلل إلى المطار و رامي دخل من صالة كبار الزوار. الغريب أنها نفس طائرة الخطوط الجوية الفرنسية و أقلعت من نفس المطار (القاهرة) و هبطت في نفس المطار (شارل ديجول) في باريس. كلاهما هارب، و الفارق أن "رامي لكح" اشترى بيتاً في باريس، بينما سقط "أحمد" على بيت آخر بالقرب منه جثة هامدة. ولد أحمد عام ١٩٩٠، و عندما كانت وزارة الصحة تستخرج له شهادة ميلاد كانت في نفس الوقت تستخرج شهادة تقدير لرامي لكح و هي تتسلم منه أول مستشفى بناه بنظام "تسليم المفتاح" و هو النظام الذي قاده لمفاتيح السلطة و منها البنوك. تخطى "أحمد" إلى السنة الأولى في المعهد الأزهري في قريته، بينما كان "رامي لكح" يتخطى المليار الأول. و في العاشرة من عمره كان يستمع من والده إلى قصة سفر الوالد إلى "باريس" بينما "باريس" في ذلك الوقت بالتحديد كانت تشهد زيارة للرئيس مبارك أجرى خلالها مرافقوه و معهم السفير المصري هناك مفاوضات مع رالمي لكح لمحاولة إعادته إلى مصر و تسوية أوضاعه، التف حوله مرافقو الرئيس و السفير المصري حتى أقنعوه. و قد عاد فعلاً و أصبح عضواً في مجلس الشعب و منحته وزارة الإسكان قطعة أرض في مصر الجديدة لينشئ ضاحية سكنية، و استضاف حفيد البارون "إمبان" مؤسس مصر الجديدة في بيته كنوع من الدعاية، و منحته البنوك قروضاً لينشئ سلسلة مطاعم باسم (بلدي) قبل أن يهرب مرة أخرى من بلده. في الأسبوع الماضي كان "رامي لكح" قد اشترى طائرة خاصة و أجَّر مهبطاً لهذه الطائرة، بينما كان "أحمد" قد تعلقت آماله و انحصرت في عجلة طائرة. تعلق "أحمد" في عجلة طائرة و من ارتفاع ثلاثين ألف قدم سقط "أحمد" و تناثرت أشلاؤه على بيوت باريس، و تناثرت دماؤه في شوارعها كما تناثرت أموالنا. و حول جثة "أحمد" تجمع الفرنسيون و قد أصيبوا بالصدمة. و وسط هذا الجمع الملتف حول "أحمد" لم يكن هناك السفير المصري و لا أحد من مرافقي السيد الرئيس.

***

تحت المظلة

كانت الحارة هادئة يكسوها الحزن و يظللها الهدوء، و تغطيها مظلة التأمين الصحي؛ سمعنا بعد نصف الليل صراخ عم "فرغلي". تجمع الجيران و قال "الحمصاني" و هو رجل حكيم "مش معقولة يكون البوليس بيعذبه دلوقتي في بيته" و قالت تفيدة: "ده نور الشقة منوَّر يبقى عنده حرامي" قال "الحماني": "معقول الحرامي ح يسيب الحزب دلوقتي و يجي يسرق شقة عم فرغلي" استمر الصراخ فقال فتيحة: "أنا متأكد إنه بيصرخ علشان جعان أنا.. عندي قطة بتعمل كده!". صعدنا إلى شقة عم "فرغلي" في الدور المخالف فوجدناه يعاني من مغص فتحولنا جميعاً إلى أطباء. خذ سبازموسبلايجين أقماع. خذ بلاسيد ثلاث مرات. خذ ينسون و دفِّي نفسك. ارتاح عم "فرغلي" لكننا صممنا على اصطحابه إلى المستشفى للاطمئنان. في المستشفى العام كان كل شيء جاهزاً. بلاطي الأطباء و أردية الممرضات و بيجامات المرضى إلا العلاج. فحصه الطبيب و سأله و هو يفحصه "عندك أجهزة كهربائية؟" فقالت "تفيدة": "أنت دكتور و لا مأمور جمرك" فنهرها الطبيب قائلاً: "ما تيجي تكشفي عليه بدالي" و قال "الحمصاني": "هوّه أدرى بشغله يا تفيدة". عاود الطبيب سؤاله فرد عم "فرغلي": "أيوه عندي سخان شاي واخده من بنتي". قال الطبيب: "كمان واخده من بنتك و طول عمرنا بنحذر الناس من انتقال العدوى". سألته "تفيدة": "هوه عنده إيه؟" فرد الطبيب بحدة: "إنتي مش سامعاه، عنده أولاد" ثم انتحى الطبيب جانباً بالحاج "الحمصاني" و طلب منه أن نسرع بأخذ المريض عم "فرغلي" و ننصرف لأنه سيموت و من الأفضل أن يموت في بيته. في الممر الخارجي للعنبر كان عم "فرغلي" يسير في الأمام و نحن وراءه و كأنها "بروفة" لجنازته. في نهاية الممر المظلم كانت "ممرضة" تجلس على الكونتر عرفتها تفيدة و سلمت عليها و سألتها: "مين اللي ح يموت فيكم"؟ فأشرنا على عم "فرغلي". فقالت الممرضة التي تعرف "تفيدة": "ماتخافوش مش ح يموت دي تعليمات جاية لنا" سألتها "تفيدة": "إزاي مش فاهمة؟" قالت الممرضة: "أصل إحنا ماعندناش لا سراير و لا أدوية، و جت تعليمات للأطباء يقولوا لأهل أي مريض إنه ح يموت علشان ياخدوه و يمشوا". غضبت "تفيدة" و أرادت أن تعود للطبيب و تخنقه و تأخذ منه الساعة و النظارة؛ لكن الممرضة منعتها و قال لها الحمصاني: "هوه ذنبه إيه دي تعليمات عليه يا تفيدة. و بعدين بصراحة ماكنش يصح إن عم فرغلي ياخد من بنته سخان الشاي، ما هو الغلط عندنا برضه"، عندما عدنا إلى الحارة كانت الحارة هادئة و يكسوها الحزن و تغطيها مظلة التأمين الصحي من كل الاتجاهات.

***

دع مائة مطواه تِتفتح

بمناسبة معرض الكتاب، هذا العرس الثقافي الرائع الذي لم ينقطع منذ الستينيات؛ بل يزداد تألقاً و بريقاً تذكرت أنني خضت غمار ثلاث حروب و دخلت قسم الشرطة أربعة مرات، و نجاني الله، و حضرت ندوة ثقافية واحدة أصبت فيها بجروح بالغة. كانت الندوة تحت عنوان "حق الاختلاف في الرؤى" و كان المحاضر يؤكد أن العرب هم أول من اكتشف الديمقراطية و الحريات و حقوق الإنسان و الثلاجة أم بابين. و أن أوروبا ربطت العرب بالجمل، ثم ربطت الجمل في وتد الخيمة فتوقفنا عن المسير. فقلت له بأدب: "لو أذنت لي". فرد بجفاء: "مفيش حمامات أثناء الندوة". فقلت: "لا يا أفندم، أنا لي تعليق". فقال لي: "مفيش تعليقات إنت تيجي هنا تسمع زي الباشا و تروح عشان ما أبهدلكش". فذكرته أن الندوة عن حق الاختلاف، فقال لي: "حق الاختلاف ده عندكم في البيت مش هنا. إنت يا واد بعتك الدكش علشان تبوّظ لي الندوة" فنفيت أنني أعرف "الدكش" أصلاً. فصمت قليلاً و راح يتأملني ثم قال لي: "إنت شكلك كدة كافر، صح"؟ فنفيت ذلك أيضاً و نطقت بالشهادتين فصرخ: "إنت كمان بتكذبني، دع مائة مطواه تتفتح". فهجم عليَّ أتباعه و حملوني إلى غرفة جانبية و أوسعوني ضرباً، ثم سألني أحدهم: "إنتم عندكم كنبة في البيت" قلت: "نعم". فقال: "ح ترجع الندوة و تقعد زي الكنبة، فاهم". رجعت إلى الندوة، فتأمل المحاضر وجهي ثم سألني: "من الذي اخترع الديمقراطية و الحريات و حقوق الإنسان و الثلاجة أم بابين"؟ فقلت بأدب شديد: "العرب يا أفندم".

***

قوة قتل ثلاثية

على الحدود الشرقية لمصر، يدخل الأسرائيليون من الجنوب دون استئذان "سائحين". و على الحدود الشرقية يدخل الفلسطينيون من الشمال دون استئذان "نازحين". و من بين هؤلاء و هؤلاء يدخل المجرمون من الوسط دون استئذان "مهربين". و أصبحت الحدود الشرقية –بسبب اتفاقية ظالمة– مثل حدود محافظة الشرقية ترحب بالقادمين و تودع المغادرين دون أن يسألهم شرطي أو يستوقفهم كمين. و أصبحنا أمام خيار صعب، إما أن نلغي الاتفاقية أو نلغي الحدود. إذ يتعرض الوطن الآن إلى اعتداء ثلاثي جديد له قوة قتل ثلاثية من "الصهيونية و الوهابية و الحرامية" جعل معنى الوطن يختفي خلف الملثمين القابعين في الداخل و الملثمين القادمين من الخارج. فالصهيونية لم تعترف حتى الآن بحدود. و الوهابية يهمها "إقامة الحدود" و ليس "ضبط الحدود" و الحرامية يؤمنون أن المال لا وطن له، فحدودهم ليست حدود الوطن؛ بل حدود البورصة و حدود الأراضي التي نهبوها. و ليس صحيحاً أن ضرب الحبيب مثل أكل الزبيب؛ فالذين اعتدت عليهم "حماس" هم أعز أبناء مصر. و على الجميع الصهيونية و الوهابية و الحرامية أن يعرفوا أن الدول لها حدود يجب أن تحترم، و أن الصبر أيضاً له حدود "آمنة"، لكن يبدو أن "آمنة" ماتت مع أختها "هنادي" في الوباء.

***

نعيماً معالي الوزير

"حلاق إشبيلية" هي المسرحية الفرنسية الشهيرة التي كتبها "بيير دي بيمارشيه" و حوّلها الإيطالي "باسيليو" إلى أوبرا عالمية، ثم جاء العبقري "روسيني" و وضعها في قالب كوميدي، و كتب لها عشرات الألحان الخالدة التي تسربت الآن مع الأسف من الأوبرا إلى إعلانات التليفزيون، و منذ كتبها "بيمارشيه" عام ١٧٧٥، ظل "حلاق إشبيلية" هو أشهر حلاق في العالم؛ حتى جاء "حلاق وزير المالية" ليغطي عليه؛ فالأول تحول إلى كوميدي بعملية جراحية، لكن الثاني مولود كوميدي خلقة ربه. في "حلاق إشبيلية" يطلب البطل من الحلاق المشورة، لكن في "حلاق وزير المالية" يطلب الوزير من الحلاق "الفاتورة" دون أن يوضح الوزير المؤلف –في الإعلان– هل الفاتورة إجمالية أم تفصيلية بالمفردات (كحت الذقن القديمة كذا – أول وش كذا – ثاني وش كذا – ثالث وش كذا – فوطة لزوم الزبون كذا – جردل للصابون و الزبون كذا) لأن الدقة مطلوبة مع الحلاقين و ليست مطلوبة مع الحيتان لأن الحلاقين يحلقون للبشرة؛ بينما الحيتان يحلقون للبنوك. في "حلاق إشبيلية" يتنكر "الكونت" عدة مرات و يذهب إلى الحلاق؛ و هي فكرة يستطيع أن يطبقها الوزير بأن يتنكر في زي فقير (عايز يحلق) و يطلب من الحلاقين الفواتير بنفسه لنرى ماذا يحدث هل نحصل على الفواتير أم نفقد الوزير؟

من المعروف أن "بيير دي مارشيه" و "يوسف دي بطرس" كليهما ثقافته فرنسية، لكن الأول "ملهاه" و الثاني "مأساة" لأن حلاق "إشبيلية" ذقن فقط؛ لكن "حلاق وزير الداخلية" ذقن و شعر و فتلة. رحم الله "روسيني" الذي لو كان حيًّاً لحول "إعلان حلاق وزير الداخلية" إلى أوبرا طويلة و يتبقى منها متران يتفصلوا فوطة.

***

بين زيارتين

اليوم "الثلاثاء" ١٢ / ٢ / ٢٠٠٨، تصل إلى المياه الإقليمية عند مدينة الإسكندرية "سفن إنجليزية" لإصلاح الكابل الرئيسي الذي تسبب قطعه في حدوث إضطراب في الاتصالات، و في يوم ثلاثاء آخر هو "الثلاثاء" ١١ / ٧ / ١٨٨٢، وصلت إلى المياه الإقليمية عند الإسكندرية "سفن إنجليزية" ايضاً. ثم قامت بضرب المدينة بالقنابل بحجة اضطراب الأمن. و بين "اضطراب الأمن" و "اضطراب الاتصالات" مرت مياه كثيرة في البحر غيّرت سياسة و سلوك الدول الكبرى لكنها لم تغيرنا حتى إن سفن الأنجليز التي سوف تحضر في "ثلاثاء" القرن الواحد و العشرين سوف ترى تقريباً نفس البلد التي شاهدتها سفن "ثلاثاء" القرن التاسع عشر، و من واقع كتب التاريخ الموثقة كانت الصورة كالآتي: برلمان يسيطر عليه الإقطاعيون و الاحتكاريون – حكام موالون للدول الكبرى – اضطرابات و إضرابات و ثورة بدو – نقص في القمح – غلاء فاحش – استبداد – نهب و سرقات – تعصب ديني وفتن طائفية – تدني التعليم و انتشار الأمية – نقص الخدمات الصحية و تفشي الأمراض – بيع مقدرات الوطن للأجانب – فن هابط و تدهور أخلاقي – صحف رسمية تنشر الأكاذيب – انهيار في المرافق – إنفاق سفيه و فقر مدقع – تلوث المياه – انتشار الرشوة – غياب العدل و إهانة المواطن – احتكار السلع – انتشار الدجل و الشعوذة – الاستغلال و الغش و التدليس – نظام ضرائب ظالم – تفشي المحسوبية بين الأقارب و الأصهار – ديون ضخمة في الداخل و الخارج – تستر على الفساد – كبت الحريات... إلخ. لقد تغيرت السفن الإنجليزية في النوع و الهدف و السلوك لكن مصر لم تتغير. الإضافة الوحيدة ربما التي لم تكن موجودة في زيارة "ثلاثاء" القرن التاسع عشر هي "لجنة السياسات" التي غيروا اسمها إلى "المجلس الأعلى للسياسات" حتى لا تتعرف عليها "السفن". و يا أمة ضحكت من جهلها "السفن".

***

شيلوا الدش

نعيش في إشكالية لا تنتهي؛ إما حرية مواطن بلا حرية وطن (قبل الثورة) و إما حرية وطن بلا حرية مواطن (بعد الثورة). و شعار (مواطن حر في وطن حر) لم يتحقق أبداً إلا نصفه فقط، أما النصف الثاني فنؤجله و حين يتحقق نحذف النصف الأول؛ و هكذا تمضي الحياة في مصر و في الوطن العربي. أثناء الحرب العالمية الثانية انقطع تدفق المطاط الطبيعي من جنوب شرق آسيا إلى ألمانيا؛ فعكف الألمان على البحث عن بديل حتى توصلوا إلى المطاط الصناعي الذي أصبح يستخدم الآن على نطاق واسع في صناعة عجلات المركبات، و وضع مواد القوانين المطاطة التي تشدها فتطبق على رقبة المعارضين و ترخيها فتبتعد عن قفا المؤيدين. هذا الأسبوع كان لقاء المطاط الصناعي مع شعار (مواطن حر في وطن حر)، فقد اجتمع وزراء الإعلام العرب لوضع ميثاق شرف إعلامي مطاطي يطبق على رقبة البرامج الحوارية، و يبتعد عن قفا البرامج الغنائية، وافقت عليه كل الدول العربية عدا دولة قطر التي اختارت حرية المواطن، بينما توجد فيها أكبر قاعدة عسكرية أمريكية، بينما اختار الباقون النصف الثاني من الشعار. و هذا الميثاق سوف يتحول في البلدان العربية إلى تشريعات و قوانين و لوائح تجعل من وزير الإعلام في كل بلد المحاور الأول و الضيف الدائم، و وضع الأسئلة و الإجابات النموذجية، و كابتن الكرة و بطل المسلسلات و المؤذن و المعلن و المشاهد الوحيد. و سوف يحضر إليك وزير الإعلام في كل الحالات سواء ضغطت على الريموت أو طلبت شاياً أو ناديت ابنك.

صدام حسين منع الدش و الموبايل و مع ذلك سقط نظامه، و قد تعلمت الدول العربية الدرس، و عرفت أن ذلك لا يكفي فقررت منع الدش و الموبايل و السخان و الغسالة و الثلاجة و التليفزيون، و الحجة موجودة؛ و هي أن الأجهزة الكهربائية على العريس.

***

بوتاجاز مسطح

قرر "هريدي" أن يشتري بوتاجازاً مسطحاً ثلاث عيون بالتقسيط. في الشركة المعلنة قدم هريدي لرئيس الحسابات صورة المرتب و شهادات ميلاد أولاده و دراسة جدوى فحصهم رئيس الحسابات، و رفعهم في اتجاه الضوء ليتأكد من وجود الخط المائي و صورة أبي الهول، ثم سأل هريدي "إنت عايز بوتاجاز ليه؟" وقف هريدي "انتباه" و أجاب بصوت عال "علشان أدافع عن الوطن يا أفندم". قال مدير الحسابات لهريدي: "من فضلك احسب معايا. الحكومة مسكت من الإخوان (٤٢) و أفرجت عن (١٣) و بعدين (٥٥) و أفرجت عن (١١) و بعدين (٣٨) و أفرجت عن (٥) و بعدين قبضت عليهم تاني و أفرجت عن (١٢) و مسكت (٢١) و أفرجت عن (٩) و رجَّعتهم تاني و أفرجت عن (٣) يبقى عند الحكومة كام؟" انتبه هريدي للكمين فقال: "اللي عند الحكومة مايضيعش يا أفندم" فابتسم مدير الحسابات، و وافق على دخول هريدي كشف الهيئة. في كشف الهيئة سألوه:

– عايز بوتاجاز ليه؟

– علشان اشجّع السياحة.

– عندك أقارب عليهم أحكام؟

– لا يا أفندم. عندي أقارب عليهم ديون.

– عندك أقارب عندهم بوتاجاز؟

– أيوه يا أفندم.

– طيب مش بتطبخ عندهم ليه؟

– أصلهم معارضين يا أفندم.

فاقتنعت اللجنة و طلبت من هريدي إحضار أولاده للكشف الطبي. أغلق هريدي وراءه الباب، و جرى الساعي خلفه و قال له: "بدل وجع القلب و كشف طبي و كشف هيئة ادفع خمسين ألفاً إكرامية و البوتاجاز يوصلك لحد البيت.

***

صندوق رايح جاي

في أمريكا يتندّرون على نوع من الضريبة قيل يوم فرضت منذ أربعين سنة أنها مؤقتة.. و حالة الطوارئ –المؤقتة– في مصر مفروضة منذ أكثر من أربعين سنة و بالتحديد يوم ١٥ / ٥ / ١٩٦٧، عدا عاماً واحداً قبيل اغتيال الرئيس السادات.. ففي مصر تسير الأمور بالقصور الذاتي فرغم انفصالنا عن تركيا مثلاً بإعلان الحماية البريطانية عام ١٩١٤، أتذكر أننا في الخمسينيات اكتشفنا أن وزارة المالية كانت لا تزال ترسل الجزية إلى الباب العالي في تركيا حتى أوقفها عبد الناصر. أشياء كثيرة مؤقتة في مصر تتحول إلى الاستدامة. و في ظل دوام قانون الطوارئ تحولنا بفضل سياسات الحكومة و أدبيات الإخوان المسلمين من مجتمع "منتج" إلى مجتمع "الصدقة". ربعنا يعمل و ثلاثة أرباع ينتظرون إبل الصدقة من الحكومة و رجال الأعمال و عرب الخليج و برامج التليفزيون و صفحات الجرائد و موائد الرحمن. و أصبح "الريع" أحب إلينا من "الربح" أو "الأجر". و أصبح في كل محافظة محافظ و مدير للأمن و ريان يجمع أموال الناس ثم يهرب. و صار العلاج عن طريق التليفزيون و دفع المصروفات بواسطة الصحف و الأكل على مائدة الرحمن و المكافآت من أمراء الخليج. ثم نغضب عندما يغني لنا الخلايجة "المصريين الشحاتين" . و اعذروني فأنا من جيل رأى صناديق المحمل و المعونة ذاهبة إلى الخليج. ثم رأى صناديق المكافآت و التبرعات تأتي من هناك. و ربما كان من محتويات هذه الصناديق شريط هذه الأغنية.

***

طيور الكابتن بلاي

أشياء كثيرة لفتت نظري في مذكرات الكابتن "وليم بلاي" مساعد الكابتن "كوك" مكتشف "أستراليا". و "بلاي" هو قائد السفينة "بونتي" الذي تحولت مذكراته إلى فيلم عالمي بعنوان "ثورة على السفينة بونتي" إذ ثار البحارة عليه و عزلوه، و لفت نظري حديثه عن طائر بحري اسمه "العبيط" كان البحارة يأكلونه و يسخرون من سذاجته؛ فإذا ابتعدت عنه يكاد يناديك لتمسكه. و إذا أهملته يدخل في جيبك أو تحت القبعة؛ بل أحياناً يدخل وراءك في الكابينة و يجلس جنب السكين. و ما لم يذكره "وليم بلاي" أن هذا الطائر المسمى "العبيط" متزوج من جريدة حكومية اسمها "العبيطة" بدلاً من أن تداري على شمعتنا تتحدث يومياً على إنجازاتنا الضخمة و مشروعاتنا العملاقة؛ و النتيجة هي هذا التزاحم الشديد حول السفارات المصرية في أوروبا للحصول على تصاريح الهجرة إلى مصر أو حتى فرصة عمل فيها، و هو ما يتطلب إنشاء قنصليات مصرية في القرى الأوروبية لتلقي الطلبات. و يؤكد الكابتن "وليم بلاي" أن طير "العبيط" كان يهاجر مثل السمَّان إلى مصر؛ فيتحول إلى "عبقري" أو دجال حسب الحال. أما سبب ثورة البحارة على الكابتن "بلاي" فيقال إنه كان يتقاضى وحده ربع مرتب السفينة أو الجريدة قبل أن تغرق.

***

أمريكا ذات الوجهين

عشرة آلاف أسرة مسيحية تم طردها و تشريدها و حرق منازلها على بُعد أمتار من القوات الأمريكية في "الموصل" و لم نسمع حتى كلمة عتاب ولا حب من أمريكا؛ فأمريكا لا تحب إلا "أقباط" مصر؛ فهي متربية في الصعيد على يد مربية قبطية، و حصلت على شهاداتها من مدرسة الراهبات، و أقباط مصر يفهمون أمريكا و يعلقون آمالهم في رقبة مواطنيهم، و على مواطنيهم ألا يخذلوهم فهم أصحاب دار و ليسوا ضيوفاً سكنوا هذه البلاد قبل أن يلبسها عفريت الوهابية بآلاف السنين، و قبل أن ترتدي نساؤها السواد حداداً على الوطن. أما أمريكا فقد ثبت من أحداث "الموصل" أنها لم تترب في الصعيد ولا في غيره.

***

التحرش الجنسي

أيها الإخوة المواطنون، استعدوا لشتمي مجاناً، و بالدرهم و الدينار، و مع ذلك أنا الغريق لا أخشى من البلل؛ فالوهابية هي أشد و أقسى المذاهب و التي اخترعها الشيخ عبد الوهاب خدمة لمؤسسي المملكة العربية السعودية، و هي لا تحمل مطبعة واحدة مثل الحملة الفرنسية؛ بل آلاف المطابع و عشرات الفضائيات. و هناك مخطط وهابي لتطهير شوارع مصر من النساء عن طريق تحقير المرأة و شحن الشباب ضدها. و مصر حائرة بين ما يأتيها من تطرف في التحرر عبر البحر الابيض و تطرف في التشدد عبر البحر الأحمر؛ لذلك استقرت على حل وسط و هي أن تغطي شعرها استجابة للبحر الأحمر؛ و تترك باقي جسمها إرضاء للبحر الأبيض. انظر إلى زي النساء في الشوارع لتتأكد مما أقول. تحاول النساء في بلادنا بالزي الملفق أن ترضي الرب و العبد و تفوز بالحسنيين؛ فالفضائيات حيّرتها بين الدعاء و الغناء. نريد الاحترام و الالتزام و الاحتشام لامزيد؛ فالعقل أثمن ما في الرأس. و يحكي كل أب و يقول: (واحد صايع معروف تحرَّش بابنتي، فأنا رحت القسم و عملت له محضراً. و بعدها بحوالي سنة اشتريت حتة أرض و بنيت فوقها عمارة اتناشر دور واتنين أسانسير و بوّاب و مراته، و بعت الشقق و بعد ما سكّنتها و سجّلتها رحت القسم اسأل على محضر التحرش، فالصول قال لي لسة المحضر هيتسجل في الدفتر لما يمضيه المأمور. فأنا نسيت الموضوع و طلبت منها أن تنساه و جوّزتها، و لما كبر ابنها راح من ورايا يسأل على محضر أمه، فالصول فهمه إن المأمور مات و إنهم ممكن يتهموا أمه إنها قتلته، فلازم تيجي القسم علشان تتنازل و تجيب معاها حاجة كبيرة تتنازل فيها. و أنا فهِّمت الولد إن توالي السنين جعل أمه من النوع الذي لا يتحرش به الشباب؛ بل أصبحت تتحرش هي بالشباب لكنه لم يقتنع و شكى لمفتش الداخلية الذي أخبره أن المحضر سوف يحال إلى النيابة في الشتاء. و لما سألنا المحامي لماذا في الشتاء؟ قال: حتى يتبل المحضر و تشربوا ميته).

***

شرفتي خواتك الأربعة

(في الشهر القادم "نوفمبر" ستجرى الانتخابات الأمريكية و سوف نعرف بعدها من الفائز و من المحبوس!). تؤكد استطلاعات الرأي أن "جون ماكين" محبوس، و أن معاونيه بدأوا من الآن في وضع خطط توصيل الطعام و الدواء و البطاطين له في السجن و طبقاً للقانون الأمريكي تجرى الانتخابات في الأسبوع الثاني من نوفمبر، و يسلم المهزوم في الانتخابات نفسه في أول ديسمبر إلى مأمور سجن "بنسلفانيا" و معه فوطة تمثل العلم الأمريكي و غيار جديد يرتديه عند زيارة لجنة حقوق الإنسان للسجن؛ لذلك يهرب بعض مرشحي الرئاسة الأمريكية إلى الخارج قبل إعلان النتيجة إذا شعروا بالهزيمة، و جون ماكين بدأ من الآن في حلاقة شعره "ظلبطة"، و في آخر مؤتمر عام أمام قيادات حزبه حط موس تحت لسانه استعداداً لمناظرة المجرمين و منازلتهم في عنبر السجن، و في لقاء تليفزيوني أكد أنه لا حكومة تهمه ولا سجن يلمه، و أن شعاره إما المكتب البيضاوي أو الزنزانة المربعة، شرفتي خواتك الأربعة. المرشح الأمريكي في العادة يضع في اعتباره احتمالات الخسارة؛ لذلك ينضم قبيل الانتخابات إلى عصابات شيكاغو للتدريب على مقص الحرامية و ضربة المطواه العياقة، و استخدام السيف أبو لمبة و لعبة حموقة يا حموقة، و كتبت على باب الزنزانة تحيا أسكندرية الحبيبة، و بلغوا الإدارة عندي بكرة زيارة. و عنبر واحد يا حرامية و عنبر اثنين يا مخالفين الشريعة، و عنبر ثلاثة يا مرشحي الرئاسة، و عنبر سمع هس القرش بعشرة و نص. ثم يضع قرن الغزال في جيبه و يتوكل على الله و يدخل الانتخابات التمهيدية و هو مستعد؛ يا صابت يا خابت؛ فإذا خابت يتم ترحيل الفائز إلى البيت الأبيض و ترحيل المهزوم إلى سجن "بنسلفانيا" لتعليمه حرفة يتكسَّب منها، ثم تبدأ المناشدات "أفرجوا عن جون ماكين" يا إما مش هنستلم المعونة.

***

زيارة السيد الرئيس

زار السيد الرئيس هذا الأسبوع قبري المرحومين جمال عبد الناصر و أنور السادات؛ فما عسى أن يكون قد دار بخياله، و هو واقف أمام قبر كلٍّ منهما!

– أمام قبر عبد الناصر:

(طبعاً إنت عارف، أنا لا عايز أزورك ولا أشوفك، هيه بس تحكُّمات السياسة اللعينة. إنت منين في الصعيد؟ صحيح إنت رقِّيتني إلى رئيس أركان القوات الجوية، لكن ده بكفاءتي مش بمزاجك. حد يا راجل يعادي أمريكا و يحارب المستثمرين؟ إنت منين في الصعيد؟ على العموم اهبط و ارتاح، أنا بِعت كل المصانع اللي إنت عملتها، و العمال اللي صدَّعتنا بيهم آهم متلَقحين ع القهاوي. بقى باسم الأمة؟ خلي بقى الأمة تنفعك. فاكر عواد باع أرضه، و فدادين خمسة خمس فدادين، و الأغاني اللي كنت بتغيظ بيها إخوانا الإقطاعيين؟ آهي الأرض رجعت لهم تاني و الفلاحين بتوعك سابوا الترعة و راحوا يغرقوا في البحر. فاكر حكاية إسرائيل و من وراء إسرائيل؟ إنت منين في الصعيد؟ علم إسرائيل على النيل دلوقتي زي السد العالي بتاعك بالظبط، و يمكن أعلى شوية. نعم! سميت ابني على اسمك ليه؟ بسيطة علشان ماتولدش أيام فاروق. إنت منين في الصعيد؟ إنت لسه هتقول الفقرا و الغلابة، تعالى يا أخويا، خد الغلابة بتوعك معاك في حضنك، ماحدش عايزهم ولا طايق يشوفهم. بقى العمال تدخل مجلس الإدارة؟ ما تجيبهم أحسن يقعدوا مطرحي. قعدت تقول طريق الثورة و طريق الحرية و طريق الكرامة، تعالى النهاردة شوف طريق المحور. مش تقول لي التعليم مجاناً و العلاج مجاناً، النهاردة دورات المياه في الشارع برسوم، و لو مش عاجبك هنركِّب عدادات التنفس. و الخمسين في المية عمال على فلاحين، خلِّيتها خمسين في المية عَمَّال على بطال. يللا كل واحد منُّه لله. أنا خلاص ماشي. لأ لأ ماتفرحش قوي، أنا بس ماشي من قدامك).

– و أمام قبر أنور السادات يقول:

(بسم الله الرحمن الرحيم * الْحَمْدُ للَّه رَبِّ الْعَالَمينَ * الرَّحْمَن الرَّحيم * مَالك يَوْم الدِّين * إيَّاكَ نَعْبُدُ وَ إيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ * آمين). ثم يمسح وجهه بكفيه و ينصرف.

***

مصر على كف عفريت

بدأت مصر بحفظ الموتى، وانتهت بحفظ الأناشيد، لأن كل مسئول يتولى منصبه يقسم أنه سوف يسهر على راحة الشعب، دون أن يحدد أين سيسهر وللساعة كام؟ ففي مصر لا يمشي الحاكم بأمر الدستور، لكنه يمشي بأمر الدكتور، ولم يعد أحد في مصر يستحق أن نحمله على أكتافنا إلا أنبوبة البوتاجاز. فهل مصر في يد أمينة أم في إصبع أمريكا أم على كف عفريت؟ هذا الكتاب يحاول الإجابة.

الفوتوغرافيا وتصميم الغلاف : أحمد اللباد



